وزارة الثقافة

أقاصيص

تأليف: عبد الحميد ياسين

جميع الحقوق محفوظة

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

أقاصيص

تأليف: عبد الحميد ياسين

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٤٦
عن مكتبة الطباعة اليافية

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: عبد الحميد ياسين
اسم الكتاب: أقاصيص
الطبعة الأولى: ١٩٤٦ عن مكتبة الطِّباعة اليافية

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
الإشراف العام: عبد السلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنان: نقولا صايغ

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

أقاصيص

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

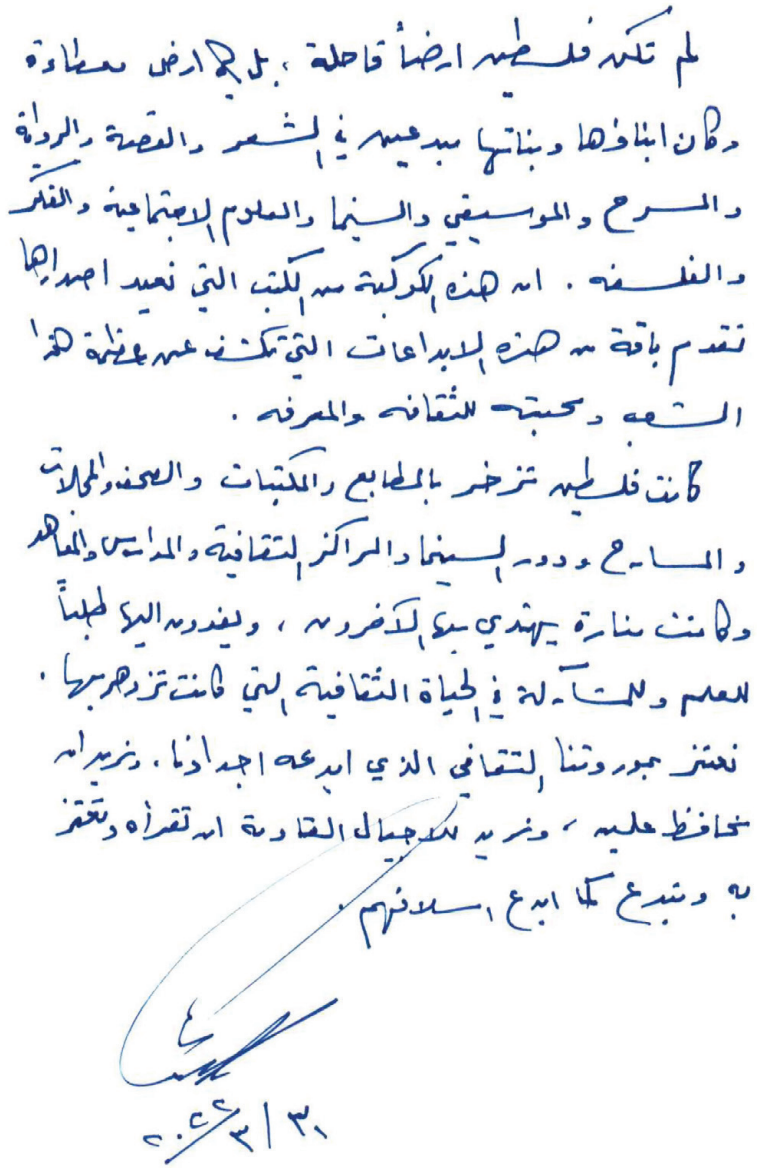

مقدِّمة الكتاب

متعت نفسي، في السنوات الأخيرة، بمعالجة الأقاصيص؛ فترجمت عددًا منها، ووضعت عددًا آخر.

وقد اخترت هذه الأقاصيص مما اجتمع لدي منها. وراعيت في الاختيار أن تتنوع لونًا وجوًّا: فمنها الوصفي والعاطفي والتحليلي. وراعيت أن يتنوع الأثر الذي تتركه في نفس القارئ: فمنها ما يحرك النفس وما يثير الفكر وما يرهف الحس.

وإني، إذ أقدم هذه الأقاصيص إلى القارئ، آمل أن تحرك نفسه نحو الخير، أو توجه فكره وجهة الحق. فإن هي قصرت عن هذا وذاك، نحسبها أن تشغل ساعات من وقته باللهو الحلال.

عبد الحميد ياسين

عيد الفيلسوف

كان رمضان يأخذ أهبة الرحيل، ويطوف بأحياء المدينة ومنازلها مودعًا، ويخطر ببال الصائمين وغير الصائمين، يستجلي شعورهم حين يستودعونه رعاية الباري العظيم وعجلة الزمن الدوار، وحين تثبت رؤية هلال خلفه، شوال، وتقصف المدافع معلنة حلول العيد. وكان رمضان يتلكأ في أخذه الأهبة، لأنه لا يدري هل تقع عيون المراقبين على تلك العلامة من النور عند الغروب - هلال شوال - أم تخطئها، فيمد الله في أجله يومًا آخر. وكان، في طوافه بالأحياء والمنازل وفي خطر إنه بالبال، يسرع حينًا ويبطئ أحيانًا. ولعل أكثر إبطائه وأطول وقوفه كان حيث يقع على مشهد ذي طرافة أو نجوى ذات بال.

وقد حدث أن قصفت مدافع العيد، ورمضان يحوم في حيّ من أحياء المدينة يسكنه أوساط الناس، فاستوقفه مشهد شاب مستلقٍ على أريكة بالية، قد عكف على قراءة كتاب، فلم يُعِر ذلك القصف انتباهه. كان كتابه مغبر الجلد أصفر الورق، وكان اسمه «آراء أهل المدينة الفاضلة». وكان القارئ من الزاهدين في مجالس الناس، محبًّا للخير، كبير القلب، نَيّر العقل، بعيد مرمى الخيال. ولعله كان مقبلًا على نهاية فصل من كتابه، حين قصفت المدافع، لأنه لم يلبث أن رفع رأسه، وطوى الكتاب ووضعه جانبًا، وجعل يحدق النظر في السقف، تحديق من يجتاز بصره العالم المحسوس إلى عالم أقصى وأسمى، متخذًا من الخيال والعقل والعاطفة وسيلة لاجتياز التخوم بين العالمين. ولعله

كان قد وعى ذلك القصف، ولكن وعيا مغمورا، بسبب انصبابه على القراءة، ثم عاد وعيًا طافيًا حين انقطع عنها.

جعل الشاب يفكر في العيد، وكيف يحتفي به الناس، وكيف إنه لم يعتد مشاركتهم ذاك الاحتفاء. ثم قال في نفسه: «ليس لي هذا العيد، ولا غيره من الأعياد!». قال هذا في شيء من الاستعلاء وفي كثير من الحسرة. ثم جال ببصره في جوانب الغرفة، واستقرّ به محدّقًا في السقف من جديد، وتمتم قائلًا: «ليت لي عيدًا فأفرح! ولكني لا أريد مثل أعياد الناس أو أفراحهم». ثم تناول الكتاب ثانية، وقلب فيه بضع صفحات، وأخيرًا وضعه جانبًا، وعاد إلى التحديق وظلّ عليه حتى أغمضت عيناه، فلم يعد يرى السقف لا بعضًا ولا جملة، ولكنه عوّض عنه مشاهد أبهى طلعة وأدنى إلى أمل الإنسان.

* * * *

رأى نفسه في قاعة، وسمع خطيبًا يتحدث عن رحلة ممتعة قام بها إلى كوكب قريب. سمعه يقول: «خير احتفاء لكم بي أنكم قد اجتمعتم لسماع تقريري. ليس بنا من حاجة إلى تبادل باقات الثناء. أنتم سهلتم لي المهمة، إذ أعددتم لي العدة، كل منكم فيما يستطيع. وأنا لم أزد على أنني رحلتُ وعدتُ. وقد جئتكم بالبيانات الوافية عن جوّ المريخ ومناخه وتربته ونباته، وكل أنواع الحيوان فيه، حتى نتدارس فيما بيننا موضوع الاستيطان في بعض بقاعه. أما أن في بعض بقاعه أناسي على جانب من الحضارة، كبير أو صغير، فأمر لا يزال مجهولًا. ولكن

لا يجهلن أحد أنه قد انقرض من أرضنا نسل الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مستخلفين فيها، قوّامين على العباد، وأنه ليس بين ظهرانينا من يجد نفسه في حل إذا افترض أن حضارة أناسي ذلك الكوكب دون حضارتنا، أو فرض عليهم مذهبًا في الفكر أو طريقة في الحكم!». وعندئذ صاح الحضور بصوت واحد: «معاذ الله! معاذ الإنسانية، أن يكون بيننا من هؤلاء أحد!».

ثم رأى نفسه أمام بناء كبير، ورأى حوله جموعًا من الناس يدخلون، فسأل أحدهم حول ذلك، فقال له إنه متحف وإن سبب إقبال الناس أنهم في عيد. وكان العيد احتفاءً بمرور قرن على وفاة آخر أميّ عثر عليه رحّالة في أحد أصقاع القطب الجنوبي. ثم رأى نفسه يدخل المتحف، فيرى على جدار طويل لإحدى قاعاته، نماذج لا عدّ لها تمثل شتى الرموز والخطوط التي درج الإنسان على استعمالها منذ فجر التاريخ، ثم منذ كانت له لغات تتفرع حينًا وتتشابك أخر وتتناءى مرة وتتلاقح أخرى، حتى قامت على أنقاضها لغة ابتدعها الجيل الجديد ابتداءً، ونقل إليها عيون ما خلفته القرون الخوالي. وكان على الجدار المواجه له رسوم بيانية توضح مدى انتشار اللغات في أصقاع الأرض على مر العصور.

ثم دخل قاعة أخرى رتبت على جانبها نماذج لما ابتكره الإنسان على مدى الأجيال، مما يصح اعتباره معالم في طريق الحضارة. فرأى النار تستخرج من الحجر، والماء يرفع بالشادوف، والمركبة تقام على الأعجال، ومسحوق البارود يفجر تفجيرًا، والمطبعة تحلّ محلّ النّسّاخ،

والقاطـرة تسـير بالبخـار، والكهربـاء تبـدد الظـلام بالمصابيـح، وتنطـق الجهـاز الأصـم بالغنـاء والحديـث، وتنقـل الصـور ثابتـة ومتحركـة، وتحيـل الـبرد دفئًـا والحـرّ بـردًا وسـلامًا، ورأى بواخـر وسـيارات وطائـرات ومناطيـد وصواريـخ.

وظـلّ يطـوف بالقاعـات، حتـى تعـب وجـاع. ولمـا هـمَّ بالجلـوس عـلى مقعـد بجـوار البـاب، لمـح في القاعـة التاليـة موائـد يلـمّ بهـا الآكلـون. فذهـب إليهـا وجلـس إلى جانـب رجـل شـيخ يفيـض وجهـه نشـاطًا وهمـة، وجعـل يؤاكلـه ويحادثـه. فعلـم منـه أن الطعـام لـه ولجميـع الآكلـين بـلا ثمـن، وأنـه ليـس مـن مـال محسـن أو متصـدق. وقـد سره أن يـرى في هـذا عونًـا للفقـير وغوثًـا للمحـروم، ولكـن محدثـه الشـيخ قـال لـه إنـه ليـس بـين النـاس فقـير أو محـروم، وأن هاتـين الكلمتـين لا يعرفهـما الجيـل الجديـد.

ثـم رأى نفسـه يسـير في حديقـة فائقـة التنسـيق، ويتجـه نحـو بنـاء كبـير خالـه مستشـفى، فلـما دنـا منـه سـمع دويًّـا خافتًـا، فسـأل الحاجـب في أمـره، فأعلمـه هـذا أن المستشـفيات قليلـة، وأن النـاس يقصدونهـا متعرفـين أحـوال المـاضي لا مستشـفين، إذ إن عـدد المـرضى لا يؤبـه بـه، ولـكل بيـت مـن ربـه طبيـب حـاذق وفي ربتـه ممرضـة ذات تدريـب، وأفهمـه أن الـدوي الـذي يسـمعه مصـدره آلات تحطيـم الـذرة التـي تعمـل ليـل نهـار، لتمـد بالقـوة جميـع المعامـل والمشـاريع. وقـد خـشي الزائـر أن يحـدث انفجـار فيصيبـه منـه أذى. فقـال لـه الحاجـب إن الخطـر مأمـون، وإن كان يُسـمع للانفجـار بـين آنٍ وآخـر صـوت شـديد.

وتابع سيره في الحديقة حتى إذا بلغ موضعًا مشرفًا على جدول رقراق، افترش العشب الغض، وجعل يستمتع بجلال المشهد، ثم اضطجع وراح يفكر في المشاهد التي مرّت به. وفيما هو كذلك سمع صوت انفجار شديد، فانتفض وهبّ من ضجعته، ونظر فإذا عيناه مثبتتان في سقف غرفته، وإذا هو لا يزال مضطجعًا على أريكته البالية، وإذا باب الغرفة يطرق طرقًا متواليًا. فخف إلى الباب ليرى مَن الطارق. ولما فتحه وجد صديقًا له أتى مهنّئًا بالعيد. وعندئذ فرك عينيه بأصابعه، وحدّق النظر ثانية في جوانب الغرفة ووجه الصديق الزائر، وقال له: «نعم لقد كنت في عيد، ولكنني ويا للأسف قد صحوت!».

فأما الصديق فلم يفهم مما سمع شيئًا، وأما رمضان فكان قد ودَّع وارتحل.

العندليب والوردة
«مترجمة»
وضعها أوسكار وايلد

كان الطالب الفتى يفترش العشب في وسط الحديقة وهو يناجي نفسه، قائلًا: «لقد وعدت بأن تراقصني، إذا أتيتها بورود حمر. ولكن حديقتي كلها لم تعطِ وردة واحدة حمراء». وكان العندليب في عشه في شجرة السنديان، فسمع النجوى، وأطل على الطالب من بين الأوراق، متعجبًا، ولم يقل شيئًا. ثم صاح الطالب: «ويلاه! ليس في حديقتي كلها وردة واحدة حمراء! آه، ما أتفه ما تقوم عليه السعادة! لقد قرأت كل ما كتبه الحكماء، وجلوت جميع أسرار الفلسفة. ومع هذا يدمر حياتي فقدان وردة حمراء!». واغرورقت عيناه بالدموع.

أطل العندليب ثانية، وقال: «هذا عاشق ما في حبِّه ريبة. وها إني أخيرًا قد وقعت عليه! فلطالما جعلته موضوعًا لتغريدي، ليلة بعد ليلة. وما أكثر ما قصصت على النجوم حكايته، وأنا لا أعرفه. أما الآن فإني أراه عيانًا، فألمح شعره الأسود كبراعم الخزامى، وأتبين شفتيه الورديتين كالزهرة التي يرجوها. غير أن الهيام قد جعل وجهه شاحبًا كلون العاج، والحزن قد غشي منه الجبين».

ثم تمتم الطالب الفتى: «سيحيي الأمير حفلته غدًا، وتكون حبيبتي بين الجمع. فإذا ما أتيتها بوردة حمراء، راقصتني حتى الفجر، فطوقتها بذراعي، ومالت برأسها على كتفي، وتشابكت منا أصابع اليدين. لكن حديقتي لم تعطِ وردةً واحدة حمراء، ولذا سأجلس وحيدًا، وتمتاز

بي حبيبتي مولية، إذ لا تكون بها حاجة إليّ. أما قلبي فلا أخاله إلا ينفطر!».

وكان العندليب يصغي، فقال: «حقًّا، ما في حبِّه ريبة. إنه ليقاسي مما ينطوي عليه تغريدي، وما استمدَّ منه اللذة يعاني به الآلام. إنّ الحب أمره عجب! لكنه أنفس من الزمرد، وأغلى من العقيق. إنه لا يُعرض في الأسواق، ولا يباع باللآلئ. إن التاجر لا يملك شراءه، والذهب لا يوازيه في كفة الميزان».

وواصل الطالب القول: «غدًا يجلس العازفون في شرفهم، ويفتنون في التوقيع على الأوتار. فترقص حبيبتي على أنغام السكان والقيثار، رقصًا خفيفًا، لا تمس قدماها فيه الأرض، ويزدحم حولها رجال القصر. أما أنا فلن تراقصني لأني لا أجد لها الوردة التي تريد». ثم رمى بنفسه فوق العشب، وغطى بكفّيه وجهه واندفع يبكي.

فمرّ به ضبٌّ أخضر، يجري منتصب الذنب، ولما رآه على تلك الحال، وقف وتساءل: «في البكاء؟». وكانت حوله فراشة تحوم، تحاول القبض على شعاع من نور الشمس، فضمّت صوتها إلى صوته، قائلة: «حقًّا، في البكاء؟». وهمست أقحوانة في أذن جارة لها، همسًا خفيفًا خافتًا: «حقًّا، علامَ نراه يبكي؟». فأجاب العندليب: «إنه يبكي على وردة حمراء». فصاح الجمع: «وردة حمراء؟ يا للسخرية!». وقهقه الضبُّ بملء شدقيه، إذ كان ميّالًا إلى التهكم.

غير أن العندليب أدرك السرّ في حزن الطالب، فظلّ صامتًا في عشّه على شجرة السنديان، وجعل يفكر في خفايا الحب.

* * * *

وبعد قليل هبّ العندليب، ونشر جناحيْه الداكنيْن، واندفع طائرًا، فاجتاز الغابة، ومرّ بالحديقة، وكأنه ظلٌّ من الظلال؛ حتى جاء منبسطًا من العشب الأخضر، تقوم في وسطه شجرة ورد جميلة. حام حولها، وحطّ فيها على فَنن؛ ثم صاح بها أن «أعطيني وردة حمراء، أغنك أعذب أغاريدي!». ولكنها هزّت رأسها، قائلة: «إن ورودي بيضاء كزبد موج البحر، بل إنها لأنصع بياضًا من الثلج الذي يكسو الجبل. عليك بأختي تلك القائمة خلف المِزْوَلة، فقد تعطيك هي ما أنت في طلبه».

طار إلى الشجرة التي تحتضن المِزْوَلة القديمة، وصاح بها أن «أعطيني وردة حمراء، أغنك أعذب أغاريدي!». غير أن هذه أيضًا هزت رأسها، قائلة: «إن ورودي صفراء كشعر حورية البحر التي تجلس على عرش من العنبر؛ بل إنها لأفقع صفرة من الزنبقة التي تتفتح في المرج، قبل أن يأتيها الحاصد منجله. عليك بأختي تلك، القائمة تحت نافذة الطالب، فقد تعطيك هي ما جئت في طلبه».

ولما طار العندليب إلى هذه الشجرة، وأعرب لها عن طلبه، هزت هي أيضًا رأسها، وقالت: «إن ورودي حمراء كلون قدمي اليمامة، بل إنها لأشد حمرة من مراوح المرجان العظيمة، التي لا تفتأ تتموّج في مغاور البحر المحيط. غيران الشتاء قد جَمّد عروقي، والصقيع قد

قـرص أكمامـي، وأغصـاني قصفتهـا العاصفـة؛ فلـن تكـون فيّ زهـرة واحـدة هـذا العـام». وعندئـذ صـاح العندليـب في وجههـا: «وردة حمـراء واحـدة، هـي كل مـا أبتغـي. أليـس إليهـا مـن سـبيل؟!» فأجابـت:

- بلى. غير أن السـبيل مليء بالرعب، ولا أجرؤ على إرشـادك إليه.

- لسـت أخشى شيئًا! أرشديني.

- إذا كنـت تبغـي وردة حمـراء، فعليـك أن تصوغهـا مـن ألحـان الموسـيقى في ضـوء القمـر، وأن تصبغهـا بـدم قلبـك. عليـك أن تشـدو لي بالأغاريـد، وصـدرك مسـند إلى إحـدى الأشـواك. عليـك أن تظـل تشـدو طيلـة الليـل، والشـوكة نافـذة إلى قلبـك، والـدم - الـذي هـو قـوام حياتـك - يجـري منـه في عروقـي، حتـى يصبـح لي.

- المـوت! إنـه لمـن غـالٍ أدفعـه لـوردة حمـراء، الحيـاة، وإنهـا العزيـزة عـلى كلّ حـيّ. مـا أبهـج الجلـوس في الغابـة الخـضراء، ومراقبـة الشـمس تتهـادى في مركبتهـا الذهبيـة، والقمـر يطـلّ مـن مركبتـه اللؤلؤيـة! مـا أعطـر رائحـة زعـرور الفـلاة! ومـا أجمـل أجـراس الزهـور المتواريـة في أعطـاف الـوادي، ونـور الخلنـج يكسـو الهضـاب! لكـن! لكـنّ الحـبَّ خـيرٌ مـن الحيـاة! ثـم مـا قلـب الطـير إذا قيـس بقلـب مـن قلـوب البـشر؟!

* * * *

وبعـد إطـراق، نـشر العندليـب للريـح جناحـه، واندفـع يطـير صعـدة.

فَمَـرّ بالحديقـة، وكأنـه ظـلّ مـن الظـلال، واجتـاز الغابـة، وكأنـه ذات شراع تشـقّ البحـر السّـاجي. أمـا الطالـب الفتـى، فـكان لا يـزال مضطجعًـا فـوق العشـب، والدمـع لمّـا يجـف مـن عينيـه الجميلتـين. فلـما دنـا منـه الطائـر، قـال مبـشرًا: «لـك السـعادة! قـد وافـاك الهنـاء! سـتنال الـوردة الحمـراء التـي تبغـي. سـأصوغها لـك مـن ألحـان الموسـيقى في ضـوء القمـر، وسـأصبغها بـدم قلبـي. وليـس لي عليـك، لقـاء ذلـك، إلا أن تكـون صـادق الحـب. إن الحـب لأحكـم مـن الفلسـفة، عـلى مـا فيهـا مـن الحكمـة، وهـو أعنـف مـن القـوة، عـلى مـا فيهـا مـن العنـف. وإن لـه جناحـيْن يصطبغـان بلـون اللهـب، وبهـذا اللـون يصطبـغ باقـي جسـمه. إنـه معسـول الشـفتين، ومـن بينهـما يفـوح عبـير اللبـان الذكـر».

وعندئـذ رفـع الطالـب عينيـه، وجعـل يصغـي، لكنـه لم يفهـم مـما سـمع شـيئًا، فقـد كانـت معرفتـه تقتـصر عـلى مـا في بطـون الكتـب. أمـا شـجرة السـنديان، فقـد أدركـت معنـاه، وشـعرت بالحـزن، لأنهـا كانـت شـديدة الولـع بذلـك الطائـر الصغـير الـذي آوتـه في أغصانهـا.

ولذلـك همسـت لـه أن «غـنِّ آخـر أغاريـدك، فسـتؤلمني الوحـدة حـين تذهـب». فلبّـى العندليـب لهـا الطلـب، واندفـع يشـدو بصـوت كصـوت المـاء حـين يتدافـع في عنـق إبريـق مـن الفضـة. ولمـا انتهـى الشـدو نهـض الطالـب مـن ضجعتـه، وأخـرج مـن جيبـه دفـترًا وقلـمًا، وسـار في الغابـة.

ثـم أخـذ يناجـي نفسـه قائـلًا: «أمّـا إنّ لهـذا الطـير شـكلًا، فأمـر لا ينكـره عليـه أحـد، ولكـن هـل تـراه يشـعر؟ إني أخـال أنـه لا يشـعر! وفي الحـق

إنه، شأنُ معظم مبدعي الفن، محض أسلوب، خلو من الروح. لست أخاله يضحي بنفسه في سبيل الناس. إنه لا يفكر إلا في الموسيقى، والفنون جميعها أنانية، كما يعلم الجميع، ولكن من يجحد أن في صوته بضع نغمات عذاب؟ لولا إنها خلو من كل معنى، عاجزة عن جلب النفع، وهذا مدعاة للأسف». ثم دخل الغرفة، واضطجع فوق فراشه الخشن، وجعل يفكر في حبه. وسرعان ما غلبه النوم.

* * * *

ولما أقبل الليل، وبدا القمر في قبة الفلك، طار العندليب حتى جاء شجرة الورد، حطّ منها على فنن، وأسند صدره إلى إحدى الأشواك، وجعل يصدح. وقضى الليل طوله مغنيًا، والشوكة توغل في صدره أعمق فأعمق، ودم قلبه يسيل بلا انقطاع، ومدّ حياته ينحسر دون رجعة، بينما القمر البلوري البارد مطل من عُلاه، يصغي.

بدأ تغريده شاديًا بالحب حين يولد في قلب الفتى والفتاة، فتفتحت على ذلك الفنّ وردةٌ جلَّ مبدعها، وجعلت أوراقها تبدو، الواحدة تلو الأخرى، كلما تتابعت منه الأغاريد. كانت الزهرة باهتة اللون، بادئ البدء، كالضباب المخيّم فوق النهر، أو كإقدام الصباح. كانت فضية كأجنحة الفجر. كانت كظل الورد منعكسة على مرآة من الفضة، أو على صفحة غدير صافٍ.

ولكن الشجرة صاحت بالعندليب أن «ادنُ من الشوكة، أيها الطائر الصغير، وزِد بها التصاقًا، وإلا طلع النهار، والوردة لما تكمل!». فدنا

الطير وزاد، وارتفع بالصُّداح وعلا، إذ جعل يغني بالعاطفة حين تولد في روح الرجل والعذراء. وعند ذلك أخذت الأوراق تتورد، كوجه الزوج إذ يجني من عروسه أولى القبل. أما قلب الزهرة، فقد ظل أبيض، لأن الشوكة لم تبلغ قلب الطائر الشادي. وليس من شيء يصبغ قلب وردة بلون القرمز، سوى الدم الذي يتدفق من قلب العندليب. ولذلك أعادت الشجرة عليه أن يدنو ويزداد التصاقًا «وإلا طلع النهار والوردة ناقصة التكوين».

فدنا من الشوكة، وزاد بها التصاقًا، حتى أصابت قلبه، فاجتاحت جسمه موجةٌ عنيفة من الألم المرير. ثم ازدادت مرارة الألم، وازداد عنف الأغاريد، حين جعل يشدو بالحب الذي يصهره الموت، فيخلص من الشوائب، ويخلد هازئًا بالقبر. وعندئذ اصطبغت الوردة - تلك الزهرة التي جلّ مبدعها – بلون قرمزي، كلون السهام التي ترمي بها الشمس جيوش الظلام، فهزمها من السماء قبل الشروق.

كانت أوراقها تتمنطق بلون قرمزي، وقلبها يصطبغ بلون الياقوت.

غير أن صوت العندليب جعل يخفت، وجناحيْه الصغيريْن أخذا يخفقان، وعينه كستهما غشاوة. ثم ازداد صوته خفوتًا، وشعر أن في حنجرته غصة، فاندفع يشدو، شدوًا عنيفًا، آخر أغاريده. سمعه القمر، فنسي انبثاق الفجر، وظل يتلكأ في قبة الفلك. وسمعته الوردة الحمراء، فهزّتها نشوة السرور، ونشرت أوراقها تستقبل نسيم الصباح المنعش. وحمله الصدى إلى كهفه الأرجواني في سفح الجبل، فأيقظ الرعاة من

نـوم مِلـؤُه الأحـلام. ونقلـه القصـب في النهـر، رسـالةً إلى البحـر. وصاحـت الشـجرة: «انظـر، انظـر، فقـد تـم تكويـن الـوردة!». أمـا العندليـب فلـم يجـب، إذ كان قـد وقـع في العشـب الكثيـف ميتًـا، والشـوكة مثبتـة في قلبـه.

* * * *

وعنـد الظهـيرة، فتـح الطالـب النـؤوم نافذتـه، ونظـر منهـا، فصـاح: «يـا لحسـن الطالـع! هـا إني أجـد وردة حمـراء، لم أرَ لهـا مثيـلًا طـول حيـاتي. إنهـا جميلـة خلابـة! ولا بـدّ أن يكـون لهـا في اللاتينيـة اسـم طويـل». ثـم مـدّ يـده، وقطفهـا في غـير عنـاء. وتنـاول قبعتـه، وذهـب مسرعًـا إلى بيـت أسـتاذه، والـوردة في يـده.

كانـت ابنـة الأسـتاذ جالسـة في مدخـل المنـزل، تطـوي حـول المغـزل خيـطَ حريـر أزرق، وكلبهـا الصغـير مقـعٍ عنـد قدميهـا. فلـما أقبـل الطالـب عليهـا، نـادى قائـلًا: «قلـتِ لي إنـك تراقصينني، إذا جئتـكِ بـوردة حمـراء. فهـاكِ وردة ليـس في الدنيـا مـا يضاهيهـا احمـرارًا! لـكِ أن تَزَيَّنـي بهـا الليلـة، عـلى أن تثبتيهـا مـن قلبـك في أدنى مـكان، حتـى تحدثـكِ بمـا لـكِ في فـؤادي».

غـير أن الفتـاة عبسـت، ثـم أجابـت: «لسـتُ أخالهـا تنسـجم مـع لـون فسـتاني. ناهيـكَ أن ابـن شـقيق رئيـس الديـوان قـد أرسـل إليّ بضـع جواهـر حقيقيـة. ومـن يجهـل أن الجواهـر أغـلى مـن الزهـور أضعافًـا مضاعفـة؟». فلـما سـمع الطالـب قولهـا، قـال في غضـب: «حقًـا إنـك لا تدركـين معنـى للجميـل!». ثـم رمـى بالـوردة في عـرض الطريـق، وسرعـان مـا داسـتها عجلـة عربـة النقـل.

«تدعـوني منكـرة الجميـل؟ وأنـت، ألسـتَ جافيًـا؟ ثـمّ مَـن أنـت، ومـاذا تكـون إذا قورنـتَ بـه؟ طالـب، لا أكـثر! ولسـتُ أخـالُ أنّ في حذائـك أبازيـم مـن الفضـة كالتـي في حذائـه». قالـت هـذا، ثـم نهضـت مـن مجلسـها، ودخلـت الـدار.

وفيـما كان الطالـب يسـير عائـدًا إلى غرفتـه، أخـذ يحـدث نفسـه قائـلًا: «يـا لحماقـة الحـب! إنـه تافـه أجـوف! ليـس فيـه مـن النفـع نصـف مـا في علـم المنطـق، إذ هـو لا يثبـت أمـرًا مـن الأمـور، بـل يظـل ينبـئ الإنسـان بأشـياء لـن تحـدث، ويحملـه عـلى تصديـق مـا ليـس بالصحيـح. الحـب! حقًّـا إنـه ليـس أمـرًا عمليًّـا، ونحـن في هـذا العـصر نعلّـق كل همنـا عـلى الأمـور العمليـة. لذلـك أعـود إلى كتـب الفلسـفة، ومـا وراء الطبيعـة».

تابـع المسـير، حتـى بلـغ الغرفـة، وسرعـان مـا دخلهـا، ثـم تنـاول كتابًـا ضخـما كسـاه الغبـار، وأخـذ يقـرأ...

أقاصيص هوفمان
«ترجمة موجزة لأوبرا أوفتاخ بهذا الاسم»

ليتَ لي بساط سلمان، فيطوي بي شاسع الأبعاد، وليت عجلة الزمن تعود بي القهقرى إلى مطلع القرن الماضي! إذن لوجدتني في مدينة نورمبرغ، والليل قد انقضى منه شطر، أدخل حانة لوتر الشهيرة، فأرى مشهدًا عجبًا. أرى جمعًا من الشبان طالبي العلم، جاءوا الحانة يحتسون بعض الخمر، في فترة استراحة بين فصلي مسرحية غنائية كانوا يشهدونها في مسرح قريب. إنهم جميعًا مرحون! إنهم يتحدثون ويضحكون ويهزلون، فبالهم خليّ، ووجوههم تطفح بِشْرًا. ولكن مَن ذلك الجالس وحدَه، ووجهه عابس وقلبه مثقل، وتعلو جبينه سحابة اكتئاب كثيفة قاتمة؟ إنه أحدهم، الطالب هوفمان الذي وُهِبَ مَيْلًا إلى الشعر والموسيقى وقدرة على الاستمتاع بها. إنه هوفمان الذي يكبرهم بعض الشيء، وله في الحياة تجارب. إنه شاب رشيق القوام، بهي الطلعة، قريب إلى قلوب الرفقاء جميعًا. ولكنه ينتحي ركنًا من الحانة، ويجلس مسندًا رأسه إلى يديه، مغطيًا بها وجهه، مستغرقًا في تأملاته.

ولم يكن هذا على هوفمان بالحدث الطارئ، بل كثيرًا ما كانت تنتابه موجات الحزن واليأس والكآبة فيعمد رفاقه إلى إنقاذه منها، ويجهدون في سبيل ذلك، ولكنهم لا يدركون نصيبًا من نجاح. حتى صديقه الحميم، نيكلاوس، الذي كان وحده رفيق السراء والضراء، وكان وحده على علم بتلك التجارب التي خلفت ذلك الحزن والاكتئاب،

ما كان ليفلح في انتشاله من وهدة اليأس أو إشاعة الأمل في نفسه. وكم أدهشهم هوفمان تلك الليلة، حين أبدى رغبته في التحدث إليهم والتنفيس عن كربه، فالتفوا حوله وطلبوا شرابًا آخر، وأخذوا يشربون ويصغون إلى حديثه.

قال هوفمان: ذقت الحب، أول ما ذقته، وأنا فتى لدن العود مرهف الحس. كنت في دور المراهقة، لما ذقت غصص الحب الأول. كانت طريقي إلى الجامعة تمر ببيت أحد العلماء، سبالا نزاني، الذي أصاب شهرة في علم وظائف الأعضاء. وكثيرًا ما رأيت في نافذة بيته فتاة مشرقة الوجه رشيقة القوام أنيقة الهندام، حتى جعلت المرور بالبيت ديدني، ثم جئت سبالا نزاني أطلب العلم لديه، ليكون لي من ذلك وسيلة التعرف إلى تلك الفتاة. ولكن معلمي، لأمر لم أكن أدريه، كان يضن عليّ بالدنو منها أو التحدث إليها، ويعدني بأنه سيتيح لي الفرصة لذلك في مقبل الأيام. فقد كانت ابنته الوحيدة، وكان يعد العدة لحفلة كبرى يقيمها لها، ليتعرف إليها زملاؤه وأصدقاؤه. وكان معلمي يقضي جانبًا كبيرًا من وقته في مختبره، يدرس ويجري التجارب ويدوّن التقارير. وكان له زميل يعمل معه في التجارب، وكانت الفتاة - وكان اسمها أوليمبيا - تقضي معظم الوقت معهما في المختبر. أما أنا فلم يكن يسمح لي باجتياز عتبته أبدًا.

وجاءت الحفلة الموعودة، ومنيت نفسي بتحقيق الأمل. لبست آنق الثياب، ولم أنسَ النظارتين اللتين صنعهما لي ذلك الزميل. كان قلبي شديد الخفقان. ولما اكتمل جمع المدعوين، عزفت الموسيقى، ودخل

معلمي وفتاتي ممسكة بذراعه، وجال بها عليهم ممتلئة زهوًا. وكانت أوليمبيا تحيي الضيوف، وتنحني في رشاقة. فلا تمّت الدورة، انتحت جانبًا وجعلت تغني، فأعجبت وأطربت. وكنت كلما حدقت فيها النظر، وملأت بأنغامها سمعي، ازددت بها شغفًا وتعلقًا.

ثم جاءت الفرصة المرتجاة، فدنوت منها، وسرعان ما كاشفتها بحبي. وكم عجبت حين اعترضني نيكلاوس، هذا الصديق الحميم، وأشار عليّ بالكف عن سكب عبارات الغرام في أذنيّ فتاتي! ولكني لم أوله عناية. ولما جاء وقت الرقص، أخذت بيدها ثم خاصرتها ودرت بها في القاعة، وكم أبهجني أنها اندفعت في الرقص. فشعرت أني أسعد إنسان. ولكن اندفاعها هذا اشتد وزاد، حتى أصبحت تقودني في الرقص، قيادة عنيفة لم تلبث أن أصابتني بدوار فقدت معه الوعي. ولما صحوت وجدت نظارتي قد سقطتا، وسمعت ضحكات الاستهزاء تتجاوب في جنبات القاعة، ونظرت فإذا فتاتي قد اختفت. ثم سمعت صوت كسر وتحطيم، فسرت نحو مصدره، حتى انتهيت إلى المختبر، حيث وجدت معلمي واقفًا مشدوهًا، وتبينت فتاتي أوليمبيا فإذا بها دمية آلية، قد أخذ زميله في تحطيمها، حتى كاد يأتي عليها. وقد كان بينهما بشأن الدمية أمر لم يعنني، وليس الآن يعنيني. إذ كفاني ما لقيته من خزي وخيبة، حين أدركت أنني كنت أعرض حبي على دمية خَيَّلها إلي فتاة آدمية سحر ساحر لعين».

وهنا تبادل المستمعون نظرات تنمّ عن عطف شديد على هوفمان السيِّئ الطالع، ثم عبّوا من الشراب مقدارًا، وعادوا إلى الإصغاء مقبلين.

وتابع هوفمان حديثه، فقال:

«مرّت على هذا الحادث بضع سنوات، ولكن أثره في نفسي لم يزل، وهو باقٍ إلى الآن. كنت في مطلع الرجولة وكان الدم الحار يجري في عروقي ويتدفق. كنت في مدينة الدفء والجمال والحب والترف. كنت في البندقية عروس البحر. وكنت أُكثِر من زيارة سيّدة من حاشية الدوق، في قصرها الفخم، يدفعني إليها حب أعنف مما كنت قد بلوت، وأرسخ قدمًا. وكان هذا الصديق الحميم، نيكلاوس، يحذرني من الخداع والاندفاع، ولكني لم أوله عناية. وما كان لي أن آخذ بنصيحته، وأنا أريد جوليتا - وقد كان هذا اسمها - تبادلني الحب، وتدنيني منها، وتقصي عنها غيري من العشاق.

ففي أحد الأيام، بعد أن نعمت بلقائها، جاء غريم لي في حبها، فأعلنت أنها تقدمني عليه، وسمحت لي بأن آخذ منه مفتاح مخدعها، لتكمل إدنائي وإقصاءه. ولما طالبته بالمفتاح أبى تسليمه، فظهر لي ساحر ماكر، وزيّن لي دعوته إلى المبارزة، فدعوته، ثم أعطاني سيفًا، فنازلته، وفي جو مشبع بالشر صرعت غريمي، فَخَرَّ على الأرض قتيلًا. فلما رأيت ما فعلت تملكني من الرعب ما أذهلني، حتى إذا ما أفقت من الذهول وجدت الساحر قد اختفى. ولم ألبث أن رأيت جندولًا يجتاز شرفة القصر، وعلى فراشه الوثير وبين حشاياه الناعمة تضطجع جوليتا، الخائنة العهد. بين ذراعي الساحر عشيقها الجديد، تلوح لي مودعة ساخرة. وكان في هذا الحادث خيبة أشد من الأولى وآلم».

ونظـر المسـتمعون إلى المحـدث نظـرة حانيـة، والتقـت عنـده نظراتهـم مواسـية. وكان أثـر حديثـه في نفوسـهم هـذه المـرة أشـد وأبعـد منـه فيـما مـضى. ثـم مـضى هوفـمان يتحـدث، وأقبلـوا عليـه بالسـمع والبـصر والقلوب.

قـال هوفـمان: «لقـد اكتويـت بنـار الحـب مرتـين، وخُيّـل إليّ أني لـن أسـعد بحـبٍّ أبـدًا. ولكننـي كنـت أجهـل مـا طوتـه عنـي الأقـدار، فقـد كان لي بعدهـما حـب حقيقـي عميـق عاصـف، وكان عـليّ أن أصـلى سـعيره. لعلـه يبلـغ بي في النهايـة فـردوس المنـى. كنـت لا أزال في البندقيـة، وكانـت السـنون قـد أنضجتنـي ووسـعت طاقتـي للحـب، حـين عرفـت انطونيـا ابنـة مستشـار الـدوق. كانـت جميلـة نحيفـة، ذات صـوت سـاحر، مولعـة بالغنـاء. وكانـت تبادلنـي حبـي العـارم. وكنـت حـين نلتقـي أشـعر أن كل نسـيج في وتـر يناغمهـا ويناغيهـا، وحـين نفـترق أرى الدنيـا فراغًـا مطلقًـا.

وتوثقـت العـرى بينـي وبينهـا، وأخذنـا عـلى نفسـينا العهـود. ولكـنّ أباهـا كان يحـول بيننـا أن نلتقـي، ويحـول بينهـا وبـين الغنـاء. لم أكـن أدري لذلـك مـن سـبب، سـوى شـدة عنايتـه بصحتهـا، وجهـده أن يحميهـا مـن عصـف الهـوى. وفي أحـد الأيـام خـرج في بعـض شـأنه، وجئتهـا وتسـاقينا كـؤوس الحـب، وحملهـا عـلى الغنـاء. ولكـن سرعـان مـا لاحظـتُ أنـه يجهدهـا، فكففتهـا عنـه. وعـاد أبوهـا، واختفيـت وراء سـجف كثيـف. دخـل ومعـه رفيـق كريـه، ودار بينهـما حديـث عرفـت منـه أن انطونيـا ورثـت عـن أمهـا الصـوت الرخيـم وعـدوى مـرض التـدرن الرئـوي.

ثـم انسـلّ هـذا الزائـر إلى غرفتهـا، وكان سـاحرًا، فتمثـل لهـا صديقًـا مـن

أصدقاء العائلة، وجعل يحثها على الغناء ولما خاب في هذا، لجأ إلى السحر فَخُيِّل إليها أن صورة أمها تحدثها وتدعوها إلى الغناء. اعتبرت انطونيا هذا الحديث رسالة سماوية لا مفر من أدائها. فأخذت تغني، وجعل صوتها الرخيم يعلو فيعلو، ونغماتها العِذاب تنتشر في جوانب القصر. ولكن هذا استنفد كل ما لديها من قوة وجهد، فسقطت من الإعياء، ولم تمضِ إلا دقائق معدودة، حتى لفظت نفسها الأخير بين ذراعي، وقد صعقني الحزن الشديد.

قَضَي هذا الزائر الساحر على حياة الفتاة التي علّقت عليها أكبر أمل في سعادة الحب. ومن قبله خدعني ساحر آخر، ونافسني في حبي السابق. حتى من قبل هذا، ألبسني ساحر نظارتين خيَّلتا إليّ الدمية كائنًا حيًّا. هؤلاء السحرة الثلاثة لم يكونوا سوى واحد، قريني من الجن، يتمثل لي في كلّ حادث إنسانًا من طراز، ويعترض سبيل سعادتي، ويورثني همًّا وغمًّا وكآبة».

ولما انتهى هوفمان من سرد مغامراته بحثًا عن سعادة الحب، عاد إليه الحزن والاكتئاب، ووضع رأسه بين يديه، وأوغل في التأمل. أما رفاقه فقد ازدادوا عطفًا عليه، وعقدوا العزم على أن يحولوا بينه وبين اكتئابه المعهود. فطلبوا شرابًا آخر، وحملوه على مشاركتهم فيه. وبعد قليل كان هوفمان أحسن حالًا، فشكر الرفقاء على حسن المؤاساة، وشرب كأسه حتى الثمالة.

وجه فولتير

في هـدوء الليـل، في أحـد خنـادق الجبهـة الغربيـة، في الحـرب الكـبرى الماضيـة، نـام الجنـود الذيـن أنهكـت قواهـم موقعـة النهـار. نامـوا ليجـددوا شـيئًا مـن العـزم يواجهـون بـه مـا يخبئـه لهـم الغـد وقـد أوشـك أن ينشـق فجـره، نامـوا جميعًـا إلا الحـارس المكلـف بالسـهر، ورفيقًـا لـه غـادر مضجعـه ليؤنسـه، فجلسـا يلعبـان الـورق ليطـردا النعـاس الـذي ران عـلى أعينهـما أو كاد، وليخلصـا ولـو إلى حـين مـن المخـاوف والوسـاوس التـي قـد تصبـح في الغـد حقائـق واقعـة. لعبـا وطـال بهـما اللعـب وهـما متعـادلان، يدنـو أحدهـما مـن الغلبـة حينًـا فيسـعد الـورق الآخـر فيسـبقه ببضـع نقـط، ثـم يسـيران زمنًـا فـلا أحدهـما بالرابـح ولا الآخـر خـسران.

وكان النعـاس قـد بلـغ مـن الحـارس مبلغـه، فألقـى الـورق مـن يـده، وقـال: «كفـى! فقـد تـولاني الملـل، وإني مضطجـع قليـلًا، ولعلـك تقـوم عنـي بالحراسـة إذا راودني النـوم». قـال هـذا واسـتلقى عـلى ظهـره ويـداه تحـت رأسـه، وعينـاه المثقلتـان بالنعـاس تنظـران إلى سـقف الخنـدق، وقـد انعكسـت عليـه في الظـلام - مـن رقـص نـور الشـمعة الضئيـل - أشـباح وأشـكال، بعضهـا غريـب كلّ الغرابـة، وبعضهـا يلقـي في الخيـال هـوى، فيسـتعيد مـن المـاضي ذكريـات قديمـة غاليـة.

وفيـما كان الحـارس ينظـر إلى سـقف الخنـدق بـين التحديـق والإغـماض، ورفيقـه إلى جانبـه يجمـع ورق اللعـب ليخبئـه في مـكان حريـز، سـمعه يتثـاءب بشـدة ويقـول بحنـين: «أواه يـا باريـس! متـى نعـود إلى جلالـك

الباهـر وجمالـك الفتّـان؟! متـى أعـود إلى الحـي اللاتينـي، وأجـول في الحديقة الصغـيرة، وأرى ذلـك التمثـال النصفـي مـن النحـاس، وعـلى وجهـه تلـك الابتسـامة العجيبـة؟! أواه متـى يـا تـرى!». وكان رفيقـه يصغـي إلى ذلـك القـول في اندهـاش، رغـم مشـاركته إيـاه في الحنـين. وكان لا يشـعر بمقـدار مـا يشـعر بـه الحـارس مـن النعـاس، فـرأى أن يتخـذ مـن ذلـك مفتاحًـا للحديـث الـذي طـال بينهـما إغلاقـه، فسـأله: «أي تمثـال تعنـي؟ ومـا نـوع الابتسـامة التـي تعلـو وجهـه؟».

وكأن الحـارس قهـر سـلطان الكـرى بتلـك الذكـرى، وكأن ذلـك السـؤال الكأس الأولى مـن الـشراب تطـرد البـؤس والملـل، وتفتـح مـن الأبـواب مـا كان مغلقًـا. فقـد هـبّ مـن ضجعتـه واعتـدل في جلسـته، وأخـذ ينظـر إلى رفيقـه كـما ينظـر إلى شـبح بعيـد. كان يعـود بذاكرتـه إلى المـاضي، ليسـترجع منـه صـورًا كاد هـول الحـرب يمحوهـا، فيقطـع بـين ماضيـه وحـاضره الصـلات، ويوهمـه أن جنبـه لم ينعـم في يـوم مـن الأيـام بغـير أرض الخنـدق مـن فـراش، وأن عينيـه لم تألفـا مـن المشـاهد سـوى جدرانـه وسـقفه ودخـان القذائـف المنعقـد في السـماء سـحبًا، وأن أذنيـه لم تعطـر بالصـوت أو نغـم سـوى أزيـز الرصـاص ودمدمـة المدافـع.

* * * *

اعتـدل الجنـدي الحـارس في جلسـته وحـدق النظـر، وبعـد آهٍ أخـرى أصـدق تعبـيرًا عـن حنينـه مـن الأولى، أخـذ يقـول: «إننـي أذكـر تلـك الحديقـة الصغـيرة والتمثـال الـذي يتوسـطها، تمثـال الفيلسـوف فولتـير،

وأذكـر الأطفـال وهـم يلعبـون بجـواره ويتحلقـون حولـه راقصـين. أذكـر ذلـك وكأني أرى صـورة جليـة الخطـوط تجعلهـا غلالـة شـعور مائـج، فقـد كنـت أشـاركهم اللعـب والرقـص في أيـام الطفولـة العذبـة البريئـة. ثـم أذكـر كيـف كانـت الحديقـة تغـص بجماهـير النـاس في أيـام الآحـاد والأعيـاد، وقـد ارتـدوا ملابسـهم الفاخـرة، واصطحبـوا أولادهـم ووجوههـم مشرقـة بالبـشر والـسرور. ولكـن ذلـك التمثـال كان دائمًـا ينظـر إليهـم وعـلى وجهـه ابتسـامة عجيبـة، تشـفّ عـن معـانٍ طالمـا حـرت في اسـتطلاعها، وكان يخيّـل إليّ أن شـفتيه تهمسـان: «افرحـوا وامسـحوا والعبـوا وارقصـوا! واختالـوا في ملابسـكم وتبخـتروا فلعلكـم بذلـك تسـعدون! سـوف تفقـدون براءتكـم العذبـة، أيهـا الصغـار! وأنتـم أيهـا الكبـار، ازهـوا بأنفسـكم واستشـعروا اللـذة مـا سـاعد الحـال، فالحيـاة آلام عـلى آلام! وإن لاح في سـمائها بـرق مـن السـعادة خلـب، فلتكتحـل عيونكـم بمـرآه، عـلى ألا تحـاول التطلـع إلى مـا وراءه».

فقاطعـه رفيقـه قائـلًا: «إنـك واسـع الخيـال جـدًا أيهـا الصديـق، حـين تـرى كل هـذا في وجـه مـن النحـاس، أو تسـمعه كلـه مـن شـفتين لا تنفرجـان إلا عـن شـق أجـوف يـؤدي إلى فـراغ خـالٍ، تحيـط بـه صفائـح النحـاس الجامـدة، ولكـن كلامـك هـذا يروقنـي، فهـات قـل لي شـيئًا آخـر عنـه». فارتـاح الحـارس إلى ذلـك، واسـتأنف الحديـث قائـلًا: «أذكـر أيضًـا تلـك العـادة الحسـناء التـي فقـدت منـي صورتهـا في زحفنـا الأخـير، وأذكـر جلسـاتنا الطويلـة في جـوار التمثـال، ننعـم بالنظـرات حينًـا وبالنجـوى آخـر، ونسـعد سـعادة طالمـا عددناهـا فـوق منـال البـشر. وأذكـر أيضًـا

أنني كنت، حين أتجه بنظري نحو ذلك الوجه النحاسي، ألمحه يسترق إلينا النظر، وتشع من أطراف عينيه ابتسامة محيّرة، فيخيّل إليّ أني أسمعه بهمس في قلبي أن «تمتعا بالصبا، واستشعرا مرحه ولذاته، ولكن لا تكثرا من العهود والمواثيق! فمن يدري ما يلد لكما الغد من أحداث، وما يحجب عنكما ستار الغيب مما سطرته يد القدر؟». وكم أدهشني وزادني تعلقًا بالتمثال وإجلالًا له، أنه لم يمض على اجتماعاتنا تلك وقت طويل، حتى نفخ في بوق الحرب. دعيت إلى الجندية مع مَن دُعِي. وسرت مع فرقتي في شوارع باريس، والناس جميعًا يهتفون لنا ويصفقون، والنساء منهم يعجبن بملابسنا الزاهية وأسلحتنا اللامعة، والأطفال تثيرهم موسيقانا فيهبون متراكضين، ويسيرون حولنا مقلدين مشيتنا العسكرية بفخر وحماسة. وعندما كنا نمرّ بالحديقة الصغيرة. نظرت فإذا التمثال يرمقنا ومن حولنا وكأنه مهيب بنا جميعًا: «إلى أين أيها المخدوعون؟ ليس في ساحة المجد التي تبغون سوى الموت والدمار، يصيبانكم غالبين أو مغلوبين. وليس من رابح سوى صانع الذخائر والأسلحة، ونفر من الطامحين إلى شيوع الاسم وخلود الذكر! وهؤلاء لا يبالون بالثمن المدفوع! لا، عودوا إلى أهلكم وذويكم!».

بهذا الحديث وأمثاله قضى الجنديان ما بقي من الليل، حتى إذا أشرقت الشمس هبّ النائمون إلى النهوض، وأخذوا يتأهبون وينتظرون الأوامر. ثم ظلوا ينتظرون حتى الظهيرة، وما كان أعظم فرحهم حين أتاهم نبأ توقيع الهدنة، وانتهاء الحرب، والعودة إلى الأهل والديار!

وبعد مرور أسبوع على هذا الحادث، كانت الفرق العسكرية تجوب شوارع باريس مرة ثانية، ولكن في ابتهاج وزهو، وموسيقاها تعزف، ولكن أنغامًا فيها حماسة ومرح، ومن حولها الناس يملأون الجو بالهتاف، وتدوي أكفهم بالتصفيق. ولما مرّ حارسنا مع فرقته، بحديقة الحي اللاتيني، نظر إلى التمثال الذي يتوسطها، فإذا بغضون وجهه ألسنة صارخة: «كلا لستم المنتصرين! لقد قتلتم رجالهم وهدمتم بيوتهم، وكذلك فعلوا هم برجالكم وبيوتكم، فكنتم جميعًا خاسرين. وما رابح المعركة إلا ذلك الروح الحيواني الذي فيكم، وقوامه الشره والقسوة والأنانية!».

ومرت الأيام والتقى حارسنا ثانية بحبيبته، واستأنف الحبيبان ما كان قد انقطع بينها أربع سنوات كاملة. وتم بينهما الزواج، واجتاز موكب العرس الحديقة، فلم يشأ النظر إلى وجه التمثال هذه المرة، لئلا تعيد إليه ابتسامته ذكريات مريرة هو الآن في غنى عنها.

وكان هذا الزواج هنيا مثمرا، وكانت ثمرته ولدًا سعيدًا مسعدًا. ومرت السنون وترعرع الولد ودرج مع أبناء الحي إلى الحديقة، يلهو مع أقرانه ويشترك في حلقات رقصهم حول التمثال، وينظر إليه بين حين وآخر فيقرأ في وجهه بعض المعاني التي قرأها أبوه من قبله، ويزداد فهمًا لها كلما تقدم به العمر وزودته الحياة بالتجارب.

أما الوالد - حارسنا الفيلسوف - فلم تتركه أهوال الحرب دون أثر. فقد اشتعل رأسه شيبًا ولمّا يجاوز الأربعين، وحلّ به ضعف الشيخوخة ولمّا

يَعـدُ مطلـع الكهولـة، وتناوبتـه الأمـراض فنغصـت عليـه العيـش، وجعلـت أخريـات أيامـه سلسـلة مـن الآلام المـرّة المبرحـة.

وحـان حينـه، وأنفـذ فيـه القضـاء سـهمه. ولمـا أن اجتـاز موكـبُ الجنـازة الحديقـةَ، نظـر ابنـه الفتـى، وفي مآقيـه الدمـع السـخين، والحـزن قـد مـات عليـه قلبـه، وشـغل لبّـه، فـرأى وجـه التمثـال، ولكنـه لم يتبـيّن خـلال الدمـع تلـك النظـرة المألوفـة. ثـم تابـع سـيره وهـو يقـول في نفسـه: «ليـس في الإمـكان أن تكـون ابتسـامته اليـوم سـاخرة. إنهـا ابتسـامة العطـف والرحمـة اسـتخلصتها منـه رهبـة المـوت وعظـم المصـاب. أمـا إذا لم يكـن بـدٌّ مـن أن تشـوبها السـخرية، فهـي لا تسـخر مـن الأبريـاء الضعفـاء بـل مـن المـوت نفسـه، الـذي يـدل بالمخالـب ثـم ينشـب فيهـم الظفـر والنـاب».

دقَّات قلب
«مترجمة»
وضعها إدغار آلان بو

أرأيت الوتر وقد شدّ، وبولغ في شدّه، حتى جعل يهتز من هبّة الريح؟ هكذا كانت أعصابي، مجموعة من الأوتار المضطربة، تهتاج لأقل شيء، ودون شيء!

لن أستطيع أن أعرف كيف بدر لي الخاطر الأول؛ ولكني أذكر أنه سرعان ما خطر لي، حتى غدوت أسيره. ولم يكن هناك من غاية؛ فقد كنت أحبّ ذاك الرجل الشيخ الذي لم يصبني يومًا بسوء، ولم يهنأ يومًا بكلمة. غير أنني أعلم أن عينه كانت السبب. نعم، فقد كانت أشبه بعين النسر، زرقاء شاحبة يغطيها غشاء، ولم تقع عليّ مرة إلا جمد الدم في عروقي. وهكذا سرت خطوة خطوة، نحو ذاك العزم الرهيب على قتل ذاك الرجل، والخلاص من تلك العين إلى الأبد!

أخذت ألاطف الرجل الشيخ وألاينه، ولست أذكر أنني كنت في يوم من الأيام أرقّ أو أكرم في معاملته، منّي طيلة ذلك الأسبوع الذي سبق الحادثة. فقد كنت أذهب إلى غرفته كل ليلة حول منتصفها، وفي يدي قنديل مجلل الجوانب، فأدنو من الباب، وأعالج الزجاج، وأفتحه ببطء وحذر، حتى إذا انفتح بقدر ما يكفي لإدخال رأسي، دفعت أولًا بالقنديل؛ ثم أدخلت رأسي وراءه. وكنت أقضي في إدخال رأسي ساعة كاملة، حتى أتمكن من رؤيته نائمًا في فراشه. وكنت، حينما يتمّ لي

ذلـك، أعالـج القنديـل بحـذر شـديد وحيطـة بالغـة، وأفتحـه بمقـدار مـا يخـرج منـه شـعاع واحـد، يقـع عـلى تلـك العـين النسريـة.

تابعـت هـذا العمـل سـبع ليـال طـوال؛ وكنـت في كل مـرة أجـد العـين مغمضـة، فأرتـد عـن العمـل، لأن الرجـل نفسـه لم يكـن يضايقنـي في شيء، ولكـن تلـك العـين الشريـرة كانـت مبعـث غيظـي ومرمـى حقـدي! وكنـت أذهـب إليـه في غرفتـه، كل صبـاح، في جـرأة هـي إلى الوقاحـة أقـرب، فأحدثه بطلاقـة واطمئنـان، كأننـي لم آتِ أمـرًا، وأخاطبـه بلهجـة تفيـض بخالـص الـود، سـائلًا إيـاه كيـف قـضى ليلتـه.

* * * *

ولمّـا كانـت الليلـة الثامنـة، كنـت في فتـح البـاب أشـد حـذرًا مـن ذي قبـل، وأدركـت مبلـغ مـا لـدي مـن القـدرة والـذكاء، فشـعرت بزهـو الانتصـار، شـعورًا كاد يطغـى عـلى قـواي. يـا لـه مـن منظـر، ذاك الـذي أراني فيـه أفتـح البـاب، قليـلًا قليـلًا، بينـما هـو لا يسـتطيع حتـى أن يحلـم بمـا يـدور في رأسي مـن الأفـكار، ومـا تقترفـه يـداي مـن الأعـمال في طـيّ الخفـاء! ضحكـت لنفـسي حينـذاك، ولكنـي أخفيـت الضحـك لئـلا يسـتيقظ، ومـع ذلـك فلعلـه سـمع، لأني رأيتـه يتحـرك في فراشـه، بغتـة. كأنمـا قـد تـولاه الذعـر.

والآن لعلـك تظننـي جبنـت وتراجعـت، كلا! لم أفعـل شـيئًا مـن هـذا، بـل تابعـت العمـل، فأدخلـت رأسي، ولمـا أوشـكت أن أفتـح القنديـل. زلّ إبهامـي عـن قطعـة الصفيـح الناتئـة، التـي يتـمّ بهـا فتحـه وإغلاقـه، ولعلّهـا

أحدثت عند ذلك بعض الصرير، لأني رأيت الرجل الشيخ يقفز، بغتة، من فراشه ويصيح: مَن هذا؟!

لزمت الصمت والهدوء، فلم أقل شيئًا ولم آتِ بحركة. وبقيت كذلك ساعة كاملة، وظل هو جالسًا في الفراش يصغي، كما كنت أنا أصغي الليلة تلو الليلة، إلى أدق صوت وأخفته. ثم فاجأت سمعي أنّةٌ خفيفة، عرفت فيها أنّة الذعر المميت، إذ كانت ذلك الصوت المختنق، المرتفع من قرارة الروح، حين تقع بين مخالب الذعر.

انتبه لما أقول! لقد عرفتُ ذلك الصوت، وعرفتُ أي شعور كان يسيطر على ذلك الرجل الشيخ؛ فأحسست بالشفقة عليه، ولكنني ضحكت في نفسي، وتملّكتني الخيلاء، حين رأيتني منتصرًا. عرفت أنه كان يقظان، منذ سمع الصوت الخافت، وأنه كان خائفًا، وأن خوفه كان يزداد منذ تلك اللحظة. ولعلّه قال في نفسه: «لا صوت ولا صائت. إن هي إلا الريح تنسرق في المدخنة، أو جرذ يجري في أرض الغرفة، أو جدجد صات قليلًا وانقطع». نعم، كان يحاول أن يدخل الطمأنينة إلى نفسه، ويلهمها العزاء، بهذه الفروض؛ ولكن بلا جدوى، لأن الموت كان يدنو منه، وشبحه الأسود يسترق الخطى أمامه، حتى اكتنفه من كل جهة.

انتظرت طويلًا، وفي صبر عظيم، فلم أسمعه يضطجع. وعزمت على فتح القنديل، فتحة صغيرة جدًا. وهكذا فعلت، حتى انبثق من شقّه شعاع واحد خافت، واهٍ كأنه خيط العنكبوت، ووقع على العين النسرية. كانت العين مفتوحة، مفتوحة بكاملها، فهاجمني ذلك المرأى.

نظرت إليها وتبينتها، زرقاء باهتة وعليها غشاء قبيح، بعث منظره في نفسي تيار القشعريرة، حتى خلتها تغلغلت فبلغت لُبّ العظام. وفي تلك اللحظة، سمعت صوتًا خافتًا سريعًا، كصوت ساعة تكتنفها لفافة من القطن. كان ذلك صوت قلبه! كان وجيب قلب الرجل الشيخ!

زادت تلك الدقات هياجي، ولكنني بقيت ساكنًا. كتمت أنفاسي قدر الطاقة، وظلّ القنديل مرفوعًا في يدي بلا حراك، يرسل شعاعه إلى تلك العين، ثابتة بلا انقطاع. ولكن في الوقت نفسه، ظلّ ذلك الصوت الجهنمي يرتفع، واستمرت سرعته في ازدياد.

في تلك الساعة من الليل، الهادئة هدوء الموت، وفي ذلك الصمت المخيف، الذي ساد منزلنا القديم، أثار ذلك الصوت في نفسي رعبًا لا يقوى الإنسان على دفعه. ومع ذلك استطعت أن أبقى، بضع دقائق أخرى، واقفًا في سكون، وفي مأمن من عائلة الرعب. غير أن الدقات علت، وظلت تعلو، فبدا لي أن ذلك القلب منفطر لا محالة.

وشعرت بقلق جديد يستولي عليّ، إذ تبادر إلى فكري أن الصوت قد يسمعه أحد الجيران.

دنت ساعة الرجل الشيخ، وأخذ مدّ الحياة ينحسر عن شاطئه. صحتُ صيحة عالية، وفتحتُ باب القنديل، واقتحمتُ الغرفة. أما هو فإنه صرخ صرخة واحدة، فأتيته، وفي مثل لمح البصر، جذبته إلى الأرض، وغطّيته بالفراش. وعندها ابتسمت ابتسامة الظفر، ولكن القلب استمرّ في وجيبه، دقائق عدة، في صوت خافت. وأخيرًا وقف، وانقطع

الوجيب. مات الرجل! جزر المد وجفّ الشاطئ! وعند ذلك أزحت الفراش، وفحصت الجثة والقلب، فوجدته ميتًا ميتة جلمود الصخر. ولما أعدت النظر إليه شعرت أن عينه لن تضايقني بعد ذلك أبدًا!

مرت ساعات الليل تترى، وبقيت أعمل مسرعًا، ولكن في سكون. وكان أول ما عملت أن فصلت عن الجثة الأطراف: ذراعيه وساقيه، ورأسه أيضًا. ثم اقتلعت من أرض الغرفة ألواحًا ثلاثة، وأودعت بين العوارض أشلاء الضحية، وأعدت الألواح إلى حيث كانت، في مهارة ودهاء لا تستطيع معها عين إنسان - حتى عينه هو - أن تلحظ موضعًا للخلل.

* * * *

كانت الساعة الرابعة، حين فرغت من هذه الأعمال، وكان الظلام حالكًا، كأن الليل لا يزال في منتصفه. ولمّا سمعت ساعة البرج تدق، صحبتْ ذلك طرقات على باب المنزل. نزلت وفتحت، وقلبي خليّ لا يثقله هم. دخل ضباط ثلاثة، وأبلغوني أن أحد الجيران كان قد سمع صرخة في الليل، فثارت الشبهة أنّ يدًا غادرة تعمل في الخفاء، ولمّا علم مركز الشرطة بذلك، انتدبهم لتفتيش المنزل.

رحبت بهم مبتسمًا، وقلت لهم إن الصرخة انبعثت مني في النوم؛ وإن الرجل الشيخ متغيّب في الريف. درت بهم في جميع أنحاء المنزل، وكنت أدعوهم إلى التدقيق في التفتيش. وأخيرًا قدتهم إلى غرفته، وأريتهم ما لديه من مالٍ ونفائس، وكيف أنها مصونة لم تُمَسّ. ثم أتيتُ لهم بكراسي وأبديت لهم رغبتي في أن يستريحوا من عناء التفتيش.

ودفعتني الجرأة الجامحة، أو قل الوقاحة، إلى وضع كرسي رابع لي، فوق تلك الألواح التي كانت ترقد تحتها جثة الضحية.

رضي الزائرون وقنعوا، فجلسوا وجلست، وأخذ يتخلل أجوبتي الطلقة المرحة حديث يتجاذبون أطرافه، حول شتى الأمور المألوفة. ولكني شعرت بعد قليل أنني أمتقع لونًا، وتمنّيت لو يذهبون! ثم أصاب رأسي صداع، وصار يخيّل إليّ أن رنينًا يدوّي في أذني. ولكن زائريّ ظلّوا جالسين، وبات حديثهم ذا شجون. قوي الرنين واتضح، واستمر وازداد وضوحه، جعلت أتكلم بطلاقة أكثر، لأطرد عني ذاك الشعور، ولكن الصوت استمر واتضح، حتى تحققتُ أنه ليس داخل أذني.

لا شك أن لوني كان آنذاك ممتقعًا، ولكنني ازددت طلاقة في الحديث، وازداد صوتي علوًّا. أما الدقات فقد ظللت أسمعها، وأسمع صوتها يزداد. أخذت ألهث في هياج، غير أن الضباط لم يسمعوا اللهاث. وشرعت أتكلم بسرعة وحِدّة أكثر من ذي قبل، وظلّ الصوت يزداد مضطردًا، حتى جعلت أسأل نفسي: «لماذا لا يذهبون؟»، وجعلت أذرع الغرفة مرة بعد أخرى، وازدياد الصوت مستمر. ثم أخذت أهذر، وأرغي أزبد، وأتمتم، وألعن. وتناولت كرسيًّا، فلوّحت به في الهواء، وحطّمته على تلك الألواح. ولكن صوت الدقات كان فوق ذلك كله، وظل الضباط الثلاثة يتحدثون بابتهاج، وهم مبتسمون.

* * * *

أتـرى كان صحيحًـا أنهـم لم يسـمعوا؟ كلا، فقـد كانـوا يسـمعون، ويرتابـون، ويعرفـون. كانـوا جالسـين يشـهدون مـا أقـاسي مـن الرعـب، هازئـين. هـذا مـا خطـر ببـالي حينـذاك، وهـو مـا أرتئيـه الآن. غـير إني كنـت في كـرب كأنـه نـزع المـوت. لم أعـد أطيـق أن أرى ابتسـاماتهم تلـك التـي تمتلـئ المداهنـة والريـاء، بـل شـعرت أني مخـيّر بـين أمريـن: أصرخ بأعـلى صـوتي وبمـلء فمـي، أو أن أمـوت، وليـس هنـاك أمـر ثالـث. ثـم أصغيـت، فـإذا الدقـات تـزداد وتعلـو، وتعلـو، ثـم تـزداد علـوًّا.

وأخيرًا اندفعتُ صارخًا:

أيها السـفلة الأدنياء، كفاكم خداعًا وتمويهًا!

كفاكم سـخرية، وهُزءًا، وتعذيبًا!

إني أعترف بما فعلت!

اقتلعـوا الألـواح الثلاثـة: هـذا، وهـذا، ثـم هـذا! فالدقـات الجهنميـة مصدرهـا قلبـه المرعـب!

عبث الأقدار

ما أشد ظلام البيت، حين يجمع بين الفقر والمرض! وما أشد بؤس العائلة، حين تعلو فيها صرخات الألم، فلا تقدر على دفعه أو تخفيفه، ثم يحوم حولها ملاك الموت فيسترد إحدى الودائع، تاركًا وراءه أمًا ثكلى وأبًا حزينًا!

الطفل في سريره مريض منذ أسابيع؛ ومرضه يزداد حتى ليرى الوالدان ألا أمل في الشفاء ولا رجاء في الحياة، ثم يعاودهما الأمل ويملأ قلبيهما الرجاء. والطفل بين هذا وذاك راقد في سريره، لا يدري ماذا يحلّ به، ولا يعلم هل يتحرر من الضائقة، ومتى؟ وما هو بالقادر على التعبير عن شعوره إن درى، إلا بصرخات الألم الموجعة، أو ابتسامات ترتسم على وجه يعلوه الشحوب، إذ أنه كان لا يزال في الثالثة من عمره.

أما الأم فهي أيضًا مريضة، وقد ألزمها المرض الفراش ما يربو على الشهرين، ولكنها تنسى مرضها أمام مرض الطفل، ويتلاشى حيال أنّاته وصرخاته ما انتابها من وجع، وما هدّ منها الكيان من لزوم الفراش زمنًا. فإن عليها أن تعنى بتمريضه فوق عنايتها بنفسها، وقيامها على أمور زوجها العامل الذي يعود في المساء منهوك القوى. وقد كان دخل الزوج ضئيلًا، لا يسمح باتخاذ خادم لمعونتها ولو بضع ساعات في النهار، حين يشتد بها المرض وتكون في أمس الحاجة إلى المعونة.

وقد أسعدها حسن الطالع بجوار امرأة كان لا يفصل بين بيتهما إلا الطريق الضيق في ذلك الزقاق البائس، فقد كانت تعطف عليها وتأتيها

كلـما سـمحت لهـا أعمالهـا البيتيـة الكثـيرة، زائـرة مواسـية ومـادة للمعونـة يـدًا فعّالـة، تعمـل بوحـيٍ مـن قلـب عـرف الحنـان لأنـه شـعر بالبـؤس. ومـا أحـرى البائـس الفقـير بمشـاركة أخيـه الفقـير البائـس آلامـه وأحزانـه!

ومـا أجدره بالعطـف عليه، عطفًا قويًا خالصًا!

* * * *

وجـاءت إليهـا ذات مسـاء تعودهـا، فوجدتهـا لا تـزال وحيـدة مـع طفلهـا. فلـما سـألتها عـن زوجهـا الـذي لم يعتـد التأخـر إلى مثـل تلـك السـاعة، أخبرتهـا أنـه عـاد متعبًـا كعادتـه، وتنـاول عشـاءه مسرعًـا، وقـال: «إن لـدى اتحـاد عـمال الكهربـاء - وكان منهـم - اجتماعًـا هامًـا هـذا المسـاء، سـيتخذ فيـه قـرارات خطـيرة، وكـم أودّ لـو أسـتطيع حضـوره، ولكـن الطفـل في خطـر، وقـد تعـاوده أزمـة المـرض في أي وقـت، ولا بـدّ مـن وجـودي قريبًـا!». ولكنـي أقنعتـه بـأن ذلـك ليـس ضروريًّـا، إذ قـال الطبيـب إن الأزمـة لـن تعـود قبـل ثلاثـة أيـام. فلـما رأيـت تـردده حملتـه عـلى الذهـاب، فخـرج قبـل بضـع دقائـق. وكـم أتمنـى أن يلهـم الاتحـاد قـرارات رشـيدة، وأن يُوَفَّـقَ إلى تنفيذهـا عـلى الوجـه النافـع! لعـلّ الأعضـاء ينالـون بذلـك زيـادة في الأجـور، فإننـا فقـراء ومـرضى، وحاجتنـا – يعلـم اللـه - شـديدة!

ونظـرت الجـارة عندهـا في جنبـات الغرفـة، فوجـدت مـا فيهـا مـن الأثـاث مقصـورًا عـلى سريريـن قديمـين وطاولـة وكرسـيين وخزانـة تجمـع بـين الملابـس وآنيـة الطعـام، ورأت عـلى الجـدران بضـع صـور منتزعـة مـن الإعلانـات، وفـوق سريـر الطفـل صـورة فتـاة معصوبـة العينـين قـد جلسـت

فـوق كـرة الأرض وانحـدر إليهـا، مـن نجـم بعيـد، شـعاع ضئيـل لا يـكاد الناظـر يتبينـه، وقـد كتـب تحتهـا «الأمـل».

وكانـت الجـارة تهـمّ بالـكلام حـين قوطعـت، ومـن يـدري مـاذا كانـت تـودّ أن تقـول، تـرى هـل كانـت تعزيهـا قائلـة: «إن هـذه الغرفـة، بالقليـل الـذي فيهـا، لتفـوق غرفتـي بكثـير! ثـم إن غـرف معظـم الجـيران دون هـذه يـا أختـاه». أم تراهـا كانـت تشـجعها قائلـة: «لتقـرّ عينـك أيتهـا الصديقـة؛ فزوجـك لا يـزال في عنفـوان الشـباب ولا تثقلـه الديـون». أم كانـت تقـول شـيئًا آخـر، لـو لم تقاطعهـا في الحديـث صرخـة موجعـة مصدرهـا سريـر الطفـل المريـض؟!

هَبّتـا كلتاهـما إلى سريـر الصغـير، لـدى سـماع الصرخـة، وانحنتـا عـلى الطفـل تنظـران بوجـوم. ويالَهَـوْل المشـهد! كان يشـهق شـهقات تفتـت الأكبـاد، وكان الـدم يذهـب في وجهـه ويجـيء، فيصطبـغ بالزرقـة حينًـا، وحـين يتـولاه الشـحوب، والعينـان مغمضتـان إلا حـين تنفتحـان قليـلًا فيشـع منهـما بريـق مـن الأمـل أضـأل مـن ذلـك الشـعاع المنحـدر مـن النجـم البعيـد في الصـورة المعلّقـة فـوق رأسـه. وأدركتـا أن الأزمـة قـد عاودتـه قبـل الموعـد المـضروب، وأن حضـور الطبيـب لا بـدّ منـه، ولا بـدّ أن يكـون سريعًـا.

خرجـت الجـارة تـدبّ في الزقـاق في ذلـك الليـل المظلـم، فلـما انتهـت إلى الشـارع العـام أسرعـت الخطـى، فأدركـت الطبيـب عـلى عتبـة داره خارجًـا مـع زوجتـه في زيـارة، فوقعـت عـلى قدميـه ترجـو وتسـتعطف. وبعـد قليـل كان الطبيـب ينـير مصباحـه الكهربـائي ذلـك الزقـاق الضيـق، وفي يـده

الأخرى حقيبته، والمرأة تتقدمه، وتحثه على الإسراع. ولكنه ما إن بلغ الباب حتى سقط من يده المصباح وانطفأ، ولم يهتدِ إليه بين الظلام والسرعة.

أما الأم المسكينة فقد ظلت حائرة في أمر طفلها، لا تدري ماذا تصنع، ولا تقدر إلا على بعض القبل، تخفف بها حرّ ما تشعر أو حرّ ما يشعر، أو تودّعه بها إذا كان مائتًا. وكم ابتهجت لمقدم الطبيب، وعاتبت جارتها على الإبطاء! أما الجارة فكانت والدة لخمسة، وكانت تعرف شعور الأم، فقبلت العتب ولم تحاول الدفاع.

نظر الطبيب إلى الطفل، وقال: «لا شيء، ولا داعيَ للقلق، وكل ما في الأمر أن أزمة المرض قد حلت قبل وقتها المنتظر. سأجري له عملية بسيطة، يزول بعدها كل شيء. فأهدأ بالًا، ولا تزعجاني! أدنِيا تلك الطاولة. وضعا عليها المصباح الكهربائي. ثم أفسحا لي مجال العمل. أما أنتِ أيتها الأم فاخرجي من الغرفة حالًا!». فقالت الأم في نفسها: «ما دام سيشفي لي ابني. فلن أعصي له أمرًا!». وخرجت وبقيت الجارة إلى جانب الطبيب تقوم بما يحتاج إليه. وضع حقيبته على الطاولة، وأخرج منها المشارط والمباضع والملاقط والإبر. ولبس قفازه، وجهز القطن والمطهرات. واستعد لتلك العملية البسيطة التي يزول بعدها كل شيء.

ثم طلب إلى مساعدته أن تعري الطفل من الثياب بينما يقوم هو بتطهير مشرطه. فلما تم له ذلك كله هوى بالمشرط مرة وثانية.

والطفل المسكين لا يدري ماذا يحلّ به. والأم من وراء الباب تدعو أن يتحقق قول الطبيب. والأب العامل في شغلٍ عن كلّ ذلك بمقررات الاتحاد وتنفيذها. ولكن ما كاد الطبيب يهوي بمشرطه للمرة الثالثة حتى انطفأ النور فصاح «ويلك ماذا فعلت؟! لماذا تلعبين بمفتاح النور؟ أنيري مرة ثانية». فدنت مساعدته من المفتاح وأدارته، فلم يحدث شيء، ولم يطق الطبيب صبرًا، فأسرع بنفسه إليه، وعالجه يمنة ويسرة، وثانية وثالثة، ولكن الظلام ظلّ دامسًا. فصاح «ويلكم! ائتوني بنور ولو شمعة. وأنت أيتها المرأة، اذهبي وابحثي عن مصباحي الذي حملتني على ضياعه بالإسراع «.

وخرجت الجارة عملًا بالأمر. ودخلت الأم، وأخذت تبحث في الخزانة بين الثياب والآنية عن شمعة قديمة. وطال بحث هذه، وطال غياب تلك، والطبيب واقف إلى جانب سرير الطفل، بيده المشرط، والعملية لما تكمل، العملية البسيطة التي يزول بعدها كل شيء!

* * * *

وفيما كان الطبيب واقفًا في ظلام الغرفة، يزمجر غضبًا، والمرأتان جادتان في بحثهما عن النور، بحثًا بدا له أنه دام ساعات طويلة، تراءى له من النافذة رجل يقترب من البيت في سرعة ملحوظة. كان هذا والد الطفل المسكين! ثم عثرت الزوجة المسكينة على شمعة. وعمدت على الثقاب.. فأنارتها وأدنتها من سرير الطفل. وعندها فتح الباب.

واندفع الزوج إلى وسط الغرفة وهو يقول: «لقد تمّ لنا النصر! فليس في المدينة كلّها الآن مصباح كهربائي واحد يشتعل!». وعلى نور الشمعة نظر الطبيب إلى وجه الطفل، وجسّ نبضه، وحملق في الأب العامل. ثم قال: «نصر هناك! أما هنا، فانظر!». ونظر الأب فإذا الطفل قد أسلم الروح وإذا الأمر قد انقضى.

الرِّهان
«مترجمة»
وضعها أنطون تشيخوف

كان الصيرفي يذرع الغرفة ذاهبًا آيبًا، محدثًا نفسه:

- ترى لِمَ أقدمتُ على هذا الرهان، وما فائدتي منه؟ المحامي يخسر خمس عشرة سنة من حياته، وأنا أقدم مليونيْن دون مقابل! فهل يقنع هذا الناس بأن عقوبة الإعدام شرٌّ من السجن مدى الحياة، أو خيرٌ منه؟ كلا، كلا! فهذا كله لغو من القول وعمل باطل، لم يكن في الأمر إلا أنه مخرج لهوى جامحٍ متقلب، يغذّيه الثراء والترف. أما المحامي فقد كان يدفعه الشَّرَه العظيم لنيل المليونين.

وكان يستعيد ذكرى تلك الوليمة، والحوادث التي تلتها. فقد تقرر أن يكون سجن المحامي غرفة في جناح من منزل الصيرفي، قريب من الحديقة، وأن يراقبه مراقبة شديدة. وتم الاتفاق على أن يحرم اجتياز عتبتها طيلة تلك السنوات، كما يحرم رؤية الناس وسماع أصواتهم، وتسلم الرسائل والصحف. ولكنه سمح له بقراءة الكتب وتحرير الرسائل وشرب الخمر وتدخين التبغ، وأن يكون لديه آلة موسيقية.

وهكذا كان له الحق، بموجب العقد، في أن يتصل بالعالم الخارجي ويخابره، ولكن بصمت، وذلك بواسطة نافذة صغيرة فتحت خصيصًا لهذه الغاية، يصله منها كل ما يحتاج إليه من الكتب وقطع الموسيقى والخمر، إذا طلب ذلك في مذكرة، وبعث بها من النافذة. وقد نصّ

الاتفاق أيضًا على جميع التفاصيل الدقيقة، التي جعلت من سجنه عزلة تامة، كما فرض عليه البقاء فيه خمس عشرة سنة كاملة من الساعة الثانية عشرة، أي عند منتصف ليلة اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر من سنة ١٨٧٠، إلى مثل تلك الساعة من مثل ذلك اليوم من سنة ١٨٨٥. وقد جاء فيه أيضًا أن أدنى محاولة يأتي بها المحامي السجين الخروج على شروط الاتفاق، كأن يهرب قبل الوقت المعين ولو بدقيقتين، تجعل الصيرفي في حلٍّ من دفع المليونين له.

* * * *

كانت المذكرات التي يبعث بها المحامي، في السنة الأولى من سنيّ سجنه، موجزة تدل على عظم ما يقاسيه من العزلة والكلال. وكان ينبعث من غرفته صوت البيان ليل نهار. وكان يرفض الخمر والتبغ. وقد كتب يومًا في إحدى تلك المذكرات يقول: «إن الخمر تُهيّج الشهوة والشهوة ألدّ أعداء السجين. ثم إنه لا شيء أدعى إلى الملل والمضايقة من أن يشرب الإنسان جيّد الخمر، وهو في عزلة». كما ذكر في غيرها أن دخان التبغ يفسد الهواء في الغرفة. وكانت تصله، أثناء تلك السنة، كتب لا تكلف قراءتها كبير عناء، من قصص غرام أو خيال أو جرائم، إلى روايات مضحكة، إلى غيرها.

وفي السنة الثانية انقطع صوت البيان، ولم يطلب السجين من الكتب إلا القيّمة. ثم عاد إلى الموسيقى في العام الخامس، وصار يطلب الخمر. وقد قال مراقبوه إنه اقتصر عمله، في تلك السنة، على الأكل والشرب

والاضطجاع فوق فراشه، وإنه كان يتثاءب كثيرًا، ويخاطب نفسه في غضب، وإنه لم يقرأ كتابًا واحدًا، بل كان في بعض الليالي يقضي ساعات طوالًا وهو يكتب، حتى إذا جاء الصباح مَزّق ما كتب، وإنه سُمِع يبكي مرات عديدة.

وفي النصف الثاني من العام السادس، أخذ السجين يدرس اللغات والفلسفة والتاريخ، واكب على ذلك في حماسة وشَرَه، حتى لم يعد الصيرفي يجد الوقت الكافي لموافاته بجميع ما يطلب. فقد ابتاع له نحوًا من ستمائة كتاب في أربع سنوات. وفي أحد الأيام تسلم منه الرسالة التالية:

«سجّاني العزيز،

أكتب إليك هذه الأسطر بِستّ لغات. فاعرضها على الخبراء ليقرأوها. فإن وجدوها خلوًا من الغلط، فأرجو منك أن تأمر بإطلاق عيار ناري في الحديقة، لأعرف أن جهدي لم يضع سدى. إن نوابغ الرجال، في كل قطر وزمان، يتكلمون لغات مختلفة، ولكن شعلة واحدة تلتهب فيهم جميعًا. كم أتمنى لو كنت تدرك مبلغ السعادة السماوية التي أشعر بها، حين أجدني قادرًا على فهم ما يقولون!».

تحققت رغبة السجين، وأُطلِقَ في الحديقة عياران ناريان.

وبعد السنة العاشرة، كان يجلس إلى الطاولة بلا حراك، ويقرأ «العهد الجديد»، ولا يقرأ شيئًا سواه. وكم كان يستغرب الصيرفي كيف أن الذي

يستوعب ما في ستمائة مجلد من غزير العلم في أربع سنوات، يقضي ما يقارب العام في قراءة كتاب صغير الحجم يسير الفهم، وبعد ذلك انتقل إلى دراسة تاريخ الأديان وعلم اللاهوت.

ولما كانت الليلتان الأخيرتان من مدة سجنه، كان عظيم الانصباب على القراءة، ولكنه يقرأ كيفما اتفق له ذلك. فكان يعكف حينًا على علوم الطبيعة، وحينًا ينصرف إلى بيرون أو شكسبير وكانت ترد منه مذكرات يطلب فيها كتبًا في الكيمياء والطب، أو قصة أو رواية، أو أطروحة في الفلسفة أو اللاهوت. وكان يقرأ، وكأنه يعوم بين ما تفكك من أوصال سفينة حطمتها العواصف والأمواج، فيمسك بالواحد منها بعد الآخر، وكل همه أن يتخذه وسيلة إلى النجاة من الغرق.

* * * *

ظلّ الصيرفي يذرع الغرفة، وظلّت هذه الذكريات تطوف به. ثم قال في نفسه: «غدًا، عند الساعة الثانية عشرة، يستعيد السجين حريته وعلي أن أنقده المليونين كاملين. وإني – إن فعلت ذلك - مضيّع كل مالي بلا رجعة أبدًا». ثم رفع يده، وأطبق بها على رأسه بشدة؛ وقال: «تبًا له من رهان! لِم لَم يمت مراهني؟ ويلاه! إنه لا يزال في الأربعين من عمره، وسيأخذ مالي إلى آخر كوبيك منه، فيتزوج وينعم باله، وينزل إلى ميدان التجارة فيغامر ويقامر، وأنظر أنا إليه نظرة السائل الحسود، وأسمع منه كل يوم قوله: «إني مدين لك بهذا كلّه، فهل لي أن أمدّ يدًا إليك». وهنا أخذت الصيرفي الحدّة، فصاح:

«كلا؛ إن هـذا لأكـثر مـما ينبغـي! إن هـذا لـن يكـون! ثـم إنـه لا مفـر مـن الإفـلاس والعـار، إلا أن يمـوت ذاك السـجين».

كانـت السـاعة قـد دقـت ثلاثًـا، والصـيرفي مصـغٍ وقـد نـام كلّ مـن في المنـزل، ولم يكـن يسـمع سـوى صـوت الأشـجار، وقـد عصفـت بهـا الريـح البـاردة، فأخـذت تـئنّ. دنـا مـن الخزانـة الحديديـة، وفي أقـل مـا يسـتطاع إحداثـه مـن الصـوت فَتَحَهـا، وأخـرج منهـا المفتـاح، مفتـاح ذلـك البـاب الـذي ظـلّ مقفـلًا خمـس عـشرة سـنة. ثـم لبـس معطفـه وخـرج مـن المنـزل.

كانـت الحديقـة مظلمـة بـاردة، وكان المطـر يتسـاقط، وكانـت الريـح الرطبـة النفـاذة تهـب معولـة، فتحـرم الأشـجار راحـة الهجـوع. حـدّق الصـيرفي النظـر جهـده، فلـم يـرَ الأرض أو الأشـجار، ولا التماثيـل البيضـاء القائمـة في الحديقـة، ولا ذاك الجنـاح مـن منزلـه الممتـد فيهـا. ولمّـا دنـا مـن موضـع الحـارس، نـاداه مرتـيْن، فلـم يسـمع جوابـه، فقـال في نفسـه: لا بـد أن يكـون قـد فـرّ مـن وجـه الطبيعـة المكفهـر، ولجـأ إلى المطبـخ يطلـب الـدفء، أو إلى الكـوخ يريـد النـوم.

تأمـل الصـيرفي قليـلًا ثـم قـال في نفسـه: إذا كان لي مـن الشـجاعة مـا أحقـق بـه هـذه الرغبـة، وقـدر لعزمـي هـذا أن ينفـذ، فالحـارس أول مـن تقـع عليـه الشـبهة في الأمـر! ثـم سـار وأخـذ يتحسـس الدرجـات والبـاب تحـت جنـح الظـلام، واجتـاز قاعـة ذلـك الجنـاح إلى بـاب الغرفـة التـي فيهـا السـجين. وهنـاك أشـعل عـودًا مـن الثقـاب، فـرأى أختـام الشـمع عـلى حالهـا لم تفـض. وعندمـا انطفـأ العـود، اسـترق الصـيرفي النظـر مـن النافـذة

الصغيرة، وكان يرتعش من شدة انفعاله، فرأى في الغرفة شمعة تتقد، فينبعث منها ضوء خافت، ورأى السجين جالسًا إلى الطاولة. ولكنه لم يستطع أن يتبين منه سوى الظهر وشعر الرأس واليدين. أما الكتب فقد كانت مفتوحة مبعثرة على الطاولة والكرسيين والبساط.

مرت دقائق خمس، والسجين لا يأتي حراكًا. فقد علّمته عزلة خمس عشرة سنة كيف يجلس دون حراك. نقر الصيرفي بإصبعه على النافذة، ولكن السجين لم يجب بحركة ثم انصرف إلى أختام الباب، ففضّها في حيطة وحذر؛ وأولج المفتاح، ولما أداره صدر عن المزلاج الصدئ صوتٌ كالأنين الأبح. ثم كان لحركة الباب صرير. وكان يتوقع أنه سرعان ما يسمع صرخة الدهشة، أو وقع الخطى. ولكن مرت دقائق ثلاث، والهدوء شامل أرجاء الغرفة، كما كان يشملها من قبل. ولذلك عقد الصيرفي النية على الدخول.

دخل الغرفة، فرأى قبالة الطاولة رجلًا ليس كالعادي من بني الإنسان. كان المحامي السجين هيكل عظام التصق بها الجلد مشدودًا، وعلى رأسه شعر طويل ملتفٌّ كشعر النساء، وكانت لحيته كثّة، ووجه أصفر مشوبًا بلون الرماد، وخداه غائريْن، وظهره كثير الاستطالة. كان جالسًا ورأسه الأشعر يستند إلى يده الهزيلة العجفاء التي تبعث الألم في نفس رائيها. وكان شعره قد أخذ يخطّه الشيب، وكان في وجهه من هزال الشيخوخة ما لا يسمح لأحد بأن يصدق أنه لم يتجاوز الأربعين سنة.

دنا الصيرفي من سجينه، فرأى على الطاولة أمامه وتحت رأسه المحني، ورقةً عليها كتابة بحروف دقيقة. نظر إليه، وقال في نفسه: «هذا هو الشيطان المسكين! إنه نائم، ولعله يرى مليونيْن في نومه. ليس عليّ إلا أن أحمله، وهو شبه ميت على هذه الحال، فأطرحه على الفراش، وأخنقه بالوسادة في مثل لمح البصر. ومهما دقّ الفحص بعد ذلك فلن يسفر عن أمر سوى أن الموت كان طبيعيًا، ولكن قبل تنفيذ العمل به دعني أقرأ ما خطه في هذه الورقة».

ثم تناول الورقة، فإذا فيها: «غدًا، في الساعة الثانية عشرة، عند منتصف الليل؛ سأنال حريتي ويكون لي حقّ الاختلاط بالناس. ولكنّي أرى من الضروري، قبل مغادرتي هذه الغرفة، وقبل أن أرى الشمس، أن أكتب إليك بضع كلمات. إني أصرّح لك، مقسمًا بضميري أمام الله، أنني أحتقر الحرية والحياة والصحة، وجميع الأشياء التي تدعوها كتبك بركات الدنيا.

لقد درستُ الحياة الدنيا بِجِدٍّ ومثابرة، طيلة خمس عشرة سنة. نعم، إني لم أرَ الأرض ولا بني البشر عليها. ولكني شربت من كتبك خمرًا عطرة، وغنّيت فيها الأناشيد، وطاردت الظباء. وفي كتبك أحببت النساء، وزارتني منهنّ الجميلات ليلًا، وكأنهن سحب الأثير، إذ خلقهنّ سحر نوابغ الشعراء، فهمسْنَ في أذني أقاصيص عجيبة جعلت رأسي يدور مثقلًا، مثل فعل الخمر. وفي كتبك صعدت إلى ذرى البرز والجبل الأبيض، فرأيت منها كيف تشرق الشمس في الصباح، وتخضّب السماء والمحيط والروابي بثوب من الذهب عند الأصيل، وكيف تلمع البروق

وتخطف، فتنشقّ لها دكناء الغيوم. ورأيت الغابات الخضر، والحقول والأنهار، والبحيرات والمدن. وفي كتبك أصغيت إلى عرائس البحر يغنّين، وسمعت صوت مزامير كبير الآلهة، ولمست أجنحة جميلة رفرفت بها حولي ملائكة الجحيم، وهي تحدثني عن الله. وفي كتبك ألقيتُ بنفسي في هوى سحيقة ليس لها قرار، وأتيتُ بالمعجزات، وأحرقتُ المدن حتى غدت أثرًا بعد عَيْن. وفيها بُشِّرتُ بأديار جديدة؛ وخضعت ممالك السلطاني.

كتبك أعطتني الحكمة. وكل ما أبدعه الفكر البشري الكدود، على مرّ العصور، قد اجتمع لي في كتلة صغيرة قد احتوتها هذه الجمجمة التي يحملها كتفاي. إني لأعرف أني أعلم منكم جميعًا، غير أني أحتقر كتبكم وما تدعوه بركات الدنيا. كلُّ شيء باطل واهن، وهمي غرار كالسراب. وإنكم، على رغم زهوكم وحكمتكم وجمالكم، ليمحُوَنَّكُم الموت من على وجه الأرض، كما تمحي تحته الجرذان. أمّا خلفكم وتاريخكم وخلود نوابغكم، فأمور أشبه ما تكون بالنفايات، وستأكلها النيران وتفنى. إنكم حمقى ضالّون، تحسبون الباطل حقًا والقبح جمالًا، يا من أسأتم المبادلة فأخذتم الأرض وأعطيتم السماء. إنني لا أريد أن أفهمكم.

وإني؛ رغبة مني في أن تدركوا كيف أحتقر ذلك الذي به تحيون، أتخلى عن المليونيْن اللذيْن كانا لي، في وقت مضى، قبلة الأحلام وفردوس المنى، بعد أن غدوت أنظر إليها محتقرًا مشمئزًا. وإني، عملًا على تأمين

حرماني من الحق فيهما، سأخلّ بشرط من شروط الاتفاق وأخرج من هنا قبل نهاية المدة بخمس دقائق.

* * * *

ولما فرغ الصيرفي من قراءة هذه الورقة، أعادها إلى الطاولة، وقبّل رأس سجينه، وأخذ يبكي. وبعد قليل خرج من ذلك الجناح، وهو يشعر بأنه يحتقر نفسه؛ شعورًا لم يسبق له أن عرفه أبدًا. ولما عاد إلى منزله واضطجع في فراشه، استحال شعوره عصفًا، وانهمرت دموعه سخينة، فحال ذلك دون نومه طويلًا.

وفي الصباح التالي، أتاه الحارس المسكين يجري، وأخبره أنه رأى سجين الجناح يخرج من النافذة إلى الحديقة؛ ثم يسير إلى بابها، فيخرج منه، ثم يختفي في ظلمة الليل.

على عتبة الفردوس

في يـوم عيـد - ومـا أكـثر مـا يزهـو النـاس، في العيـد، بالملبـس الجديـد! - حدثـت نفـسي بالفـرار مـن زهوهـم إلى الطبيعـة، وهـي جميلـة في كل يـوم، ولا تزهـو أبـدًا. وقصـدت إلى مقهـى يقـوم عـلى تـلّ شـاهق، ويـشرف عـلى البحـر في الزرقـة الصافيـة المتصلـة بزرقـة السـماء. ومـا إن جلسـت، وولّيْـت وجهـي شـطر البحـر الأزرق السـاجي، حتـى هنّأتنـي نفـسي عـلى حسـن الاختيـار. ثـم تذكرنـا سـجايا النـاس، الحسـن منهـا وغـير الحسـن، وذكرنـا أن بينهـم الشـجاع والجبـان، وكبـير القلـب وصغـيره، وواسـع الخيـال وضيّقـه، فتذكـرت أني كنـت أحمـل في جيبـي كتيّبًـا يـروي قصـة البطـل الشـاعر العاشـق (فـارس بنـي حمـدان).

سـللت الكتيّـب مـن جيبـي، ورحـت أقـرأ سـيرة أبي فـراس البطـل الفـذّ، والشـاعر المجيـد. وسـايرته مـن مولـده إلى صبـاه. وشـاهدته يغـيّر في المعركة، ويلتهـب حشـاه حبًّـا ويُـودِع الشـعر أمجـاد النـصر وألحـان الشـوق. ثـم شـاهدته أسـيرًا للـروم في قلعـة خرشـنة الحصينـة الشـاهقة، المشرفـة مـن أكمـة عـلى نهـر الفـرات، مـن بعـد يزيـد عـلى خمسـمائة ذراع. ورأيتـه، وقـد بـرح بـه الشـوق إلى نجـلاء حبيبتـه، يخـرج إلى فنـاء القلعـة، فيقتـاد جـواده إلى صخـرة هنـاك، ويعصـب عينيـه ثـم يمتطيـه، ثـم ينخسـه ويصيـح بـه. فـإذا الجـواد يثـب ويمـرق مـن الهـواء زمنًـا، حتـى إذا سـقط في النهـر، مـات في الحـال مـن شـدة الصدمـة. ثـم يفيـق الفـارس مـن ذهولـه، ويأخـذ يسـبح وحـراس القلعـة ينظـرون مشـدوهين مأخوذيـن.

وهنا لم يكن لي بدٌّ من أن أضع الكتاب جانبًا. وعدت أحدق في البحر فلا أراه، إذ انصرف الإبصار مني إلى تلك الصورة الحية التي ارتسمت على لوحة الخيال: صورة الفارس، وقد تسعرت في صدره نار الشوق، يطوّق بذراعه عنق جواد معصوب العينين، يهويان معًا من علوٍّ شاهق إلى أمواج متلاطمة وخطر محقق.

وتلاطمت أفكاري زمنًا، حتى قطعها عليّ مقدم شاب يتأبط ذراع كهل، جاءا إلى المقهى، وجعلا يبحثان عن مجلس فيه إلى جواري. وشاءت الظروف أن يختارا مجلسًا يحجبان به عني جانبًا من منظر البحر، ويحبسان به عني نصيبًا من نسيمه الرخاء. فغاظني منهما ذلك. ولكن الكهل منهما حيّاني مستأذنًا، فأذهب عني بعض غيظي. أما الشاب فلم يأتِ عملًا مثل ذلك. وكان قد لفت نظري، عند دنوّهما مني، أن في تأبطه ذراع رفيقه، ما يشعر بإبائه أن يعترف بالحاجة إليه. جلسا وملآ رئتيهما في بضع عبّات من الهواء النقي.

وكان يبدو في مسلك الشاب ارتياح كثير إلى الانطلاق من أسر أو الخروج من حياة رتيبة. وكان أول ما قال: «هكذا يستبدل الإنسان بالأصوات أصواتًا!» وعندئذ أوليته ورفيقه انتباهي، إذ بدا لي أن في الأمر شيئًا. واستقر بهما المجلس، وجاءهما أحد ندل المقهى بنارجيلتين، وجعلا يكركران. وكان الشاب يعبّ من دخان نارجيلته عبًّا، وقدماه بين المعلقتين في الهواء والمرتكزتين في الأرض بعض ارتكاز، تنكسر، من طرفيهما على التراب، موجات عصبية خفيفة متعاقبة.

أصغيت إليهما، فإذا بالشاب يسأل رفيقه: «ترى هل يخرج بي إلى الطبيعة خطوة واحدة، أم ينقلني في تؤدة خطوات عديدة قصيرة؟». ونظرت إلى السائل متفحصًا فإذا به حسن البزة والهندام، ولا يميّزه عن الناس شيء. نعم كان على عينيه نظارتان سوداوان، ولكن على عيون الكثير من الناس نظارات سود. وتابعتُ الإصغاء، فإذا بالشاب يقول: «إن الطبيب لم يَعِد وعدًا قاطعًا بنجاح العملية، بل قال إنه لم يسبق نجاح عملية كهذه في الماضي، ولكن في نجاحها بعض الأمل».

وسمعت الرفيق الكهل يسأل في رفق: «وكم تقضي من الأيام في المستشفى؟». وسمعت الشاب يجيب «أسبوعين، أسبوعين تحدث فيهما المعجزة، المعجزة التي لا أستطيع تصورها! ولست بمستطيع أيضًا أن أتصور الطبيب يغفل الجانب النفسي في الأمر. إنه لا بدّ مقدر عنف الأثر إذا دفع بي مرة واحدة إلى عالم النور والألوان والأشكال. إنّ في حلول النور محل الظلام ما يكفي للمفاجأة، فلتأتِ الألوان دون إسراع، ولتأتِ من بعدها الأشكال».

قال الشاب هذا، وعبّ من دخان النارجيلة ملء فيه ورئتيه، وسَرَتْ فيه إلى رؤوس أصابع القدمين موجة عنيفة. ثم رأيته يمرّ بيديه على نظارتيه السوداوين، ويقول: «ليس عبثًا أنني أضعهما على عيني، فما أشدّ ما أكّدوا لي نفعهما في حفظ ما بقي في العينين من نور، من أن يفلت وينطلق، أو يكسفه ويطفئه وهج الشمس في وضح النهار! وسمعتهم يقولون، والطبيب أيضًا قال: إن لتدخين لفائف التبغ أثرًا سيئًا في نور العينين، أما النارجيلة فلا تضيره شيئًا. ورأيي أنها ذات

فائـدة أيضًـا، فهـي تؤنسـني حـين تنقطـع مـن حـولي الأصـوات، ولدخانهـا أثـر عظيـم في تسـكين أعصـابي».

وجاءهـما صاحـب المقهـى، بالقهـوة، وجعـل الشـاب يـشرب. فسـمعته يحـاور رفيقـه: «هـذه القهـوة، تقولـون إنهـا سـوداء، والقطعـة مـن الفحـم تقولـون إنهـا سـوداء أيضًـا. وأنـا لا أتصـور كيـف تكونـان مـن لـون واحـد! لسـت أرى مـا يربـط بينهـما، في كثـير أو قليـل. ثـم إني أسـمع البحـر تتكـسر أمواجـه عـلى الصخـر، وتقولـون إنـه أزرق! وتقولـون أيضًـا إن السـماء زرقـاء، ولكنـي لا أسـمع لهـا صوتًـا، ولا أرى مـا الـذي جمـع بـين البحـر والسـماء في اللـون!».

ونظـرتُ إليهـما فرأيـت عـلى وجـه الرفيـق المسـؤول علائـم الحـيرة الشـديدة والعطـف الشـديد. ثـم سـمعته يجيـب: «الألـوان يسـتطيع النـاس تمييزهـا بالنظـر، كـما يسـتطيعون تمييـز الأصـوات بالسـمع. وأنـت تميّـز بـين لحـن وآخـر، إذ لـكلّ لحـن لـون». وهنـا قاطعـه الشـاب بقولـه: «معـاذ اللـه! بـل صنـف أو نـوع لا لـون، والألحـان ككل صـوت نتيجـة لاصطـدام وحركـة. فنتيجـة لأي شيء تـرى تكـون الألـوان؟». وازدادت حـيرة الرفيـق فلـم يُجِـب. وسَرَت في جسـم الشـاب موجـة أخـرى عنيفـة، ثـم قـال: «الألـوان شيء سـحري ليـس لـه تفسـير، وهـي متنوعـة كثـيرة، وأنـا أعـرف أسـماءها، جميعًـا. ولعـلّي أسـتطيع يومًـا أن أقـرن كل اسـم بالمسـمى! فـإذا لم يتـمّ هـذا لي، فلعـلّي بالـغ درجـة التمييـز بـين الظـلام والنـور، بـإذن اللـه!».

وهنـا تذكـرت أول مـا قالـه الشـاب حـين أتى، مِـن أن لـه في المجـيء إلى

المقهى تغيير أصوات. وهذه عبارة لم يسبق لي أن سمعتها أو قرأتها. إذ يقول الناس في العادة أنهم يبغون تغيير المناظر. ولم يكن بي من رغبة في الاكتفاء بما سمعت وشاهدت، بل قمت وفاءً بموعد، وخَلَّفتُ الشاب ورفيقه يتحادثان، وكل ظني أن الحديث بينهما قد يستمر، ولو معادًا، حتى تجري له العملية، ويكون لها، بعد عناية الله وكرمه، فضل نقله إلى دنيا عامرة بالألوان.

كان هذا الكفيف يعيش في أسر الظلام، ويتطلع في شوق إلى أن ينطلق إلى فردوس يفيض بالنور، ويخشى أن يعشيه النور إذا فاض وتدفق. ومثله كان ذلك الفارس أسيرًا في القلعة الحصينة، يتطلع إلى لقاء نجلائه، ولكن لا يخشى أن تبلعه أمواج الفرات.

وقد عدت إلى الكتيّب فيما بعد، فعرفت منه أن أبا فراس نجا من أمواج الفرات، وانطلق يعدو، فمرّ به فارس من الروم، فوثب عليه وأسقطه عن جواده. ثم علاه، واندفع به نحو مدينة حلب. وفي حلب كان ملء الأفواه، والأسماع، وذهب إلى نجلاء يروي بلقائها صدى شوقه، ولم تمضِ أيام حتى أقيمت لهما معالم الأفراح.

أما صاحبنا الشاب الكفيف، فمن يدري هل كتب له أن سينجو من أسر الظلام، ويختال في فردوس النور وجنة الألوان؟ لقد لقيته يوم عيد، ودعوت له بِعيدٍ أكبر، وهذا أقل ما أستطيع تقديمه. فقد كان لروحي في ذاك اللقاء غذاء، وجاء ما رأيت وما سمعت، ضمن ذاك الإطار من قصة أبي فراس، وكأنه استطراد بيدبا من قصة إلى أخرى.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي